

كتاب
التحولات والهجرة
في أقاليم النهار
والليل
صياغة نهائية
أدونيس




www.alkottob.com

كتاب التحولات والهجرة
في أقاليم النهار والليل

أدونيس

# كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل

(صياغة نهائية)



دار الآداب - بيروت

طبعة جديدة
١٩٨٨

# زهرة الكيمياء

«كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»

«وقال لي اقعد في ثقب الإبرة ولا تبرح، وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا تمده، وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان».

النِّفَّري


www.alkottob.com

# زهرة الكيمياء

ينبغي أن أسافرَ في جنّةِ الرّمادْ
بين أشجارها الخَفيّهْ
في الرّمادِ الأساطيرُ والماسُ والجزّةُ الذّهبيّهْ.
يَنبغي أن أسافرَ في الجوعِ، في الوَردِ، نحو الحصَادْ:
ينبغي أن أسافرَ، أن أستريحْ
تحت قوس الشّفاهِ اليتيمَهْ،
في الشّفاه اليتيمَةِ في ظِلّها الجَريحْ
زَهرةُ الكيمياءِ القديمَهْ.

# الدهشة الأسيرة

ذاهِبٌ أتفيّأ بين البراعم والعشبِ، أبْني جزيرَةْ
أصِلُ الغصنَ بالشُّطوطْ
وإذا ضاعَتِ المرافيء واسودّتِ الخطوطْ
ألبسُ الدّهشة الأسيرَةْ
في جَنَاحِ الفراشَةْ
خلفَ حصن السّنابلِ والضّوءِ في مَوْطِنِ الهَشاشَةْ.

# شجرة النهار والليل

قبلَ أن يأتيَ النّهارُ، أَجيءُ
قَبل أن يتساءَل عن شَمْسِهِ، أضيءُ
وتجيءُ الأشجارُ راكضةً خلفي، وتمْشي في ظلّيَ الأكمامُ
ثم تبني في وجهيَ الأوهامُ
جُزُراً وقِلاعاً من الصَّمْتِ يجهل أبوابها الكَلامُ
ويُضيءُ اللّيلُ الصّديقُ، وتنسى
نفسها في فراشيَ الأيامُ

ثمّ، إذ تسقطُ الينابيعُ في صدري،
وتُرْخي أزرارَها وتَنَامُ
أُوقِظُ الماءَ والمرايا، وأجلو
مثلَها، صَفْحةَ الرّؤى، وأَنَامُ.

# كنيسة النهار

صارَت ليَ الكؤوسُ والأكمامْ
وسَادَةً
حُلْماً على الوسادَهْ،

من زَمَنِ الولادَهْ
في غابةِ الرّضاعِ والفِطامْ
أنقلُ أجراسيَ في اللّيلِ إلى كنيسة النّهارْ
ألثُغُ قُدّاسيَ بينَ الطَّلعِ والثّمارْ
وَالوَرَقُ العِمادَهْ.

## شجرة الشرق

صِرتُ أنا المِرآةْ:
عكسْتُ كلَّ شيْءْ
غيَّرتُ في ناركَ طقس الماء والنّباتْ
غيّرتُ شَكْلَ الصّوتِ والنّداءْ

صرتُ أراكَ اثنينْ:
أنتَ وهذا اللّؤلؤ السّابحْ في عينيْ
صرتُ أنا والماء عاشقينْ:
أُولَدُ باسْم الماء
يُولَدُ فِيَّ الماءْ
صِرتُ أنا والماء توّأمينْ.

# الاشارة

مَزجتُ بين النّار والثّلوجْ ـ
لن تفهمَ النِّيرانُ غاباتي ولا الثّلوجْ
وسوف أبقى غامضاً أليفاً
أسكُنُ في الأزهار والحجاره
أغيبُ
أستقصي
أرى
أمُوجْ
كالضّوءِ بين السِّحرِ والإشارهْ.

# شجرة الحنايا

في حقول الكآبةِ، في العشب أرسمُ أيَامي الحَجَرِيهْ
كاسراً صفحةَ المرايا
بين شمس الظهيرة والماءِ في البِركةِ الآدميَهْ.

صنَواتي تُهاجرُ كالجوع تنهارُ في غابة الحنايا
سَنَواتٌ. . .
رأيتُ مناقيرَها تَتَشابَكُ، تَنْهارُ في غابةِ الحنايا
بين أعْشاشِها الأبَديّهْ.

# شجرة النـار

عائِلةٌ من وَرَق الأشجارْ
تجلسُ قُربَ النَّبْع
تجرحُ أرضَ الدَّمْعْ
تقرأ للماء كتابَ النّارْ

عائلتي لم تنتظر مجيئي
راحَتْ
فلا نارٌ ولا آثارْ.

# شجرة الصباح

لاقِني يا صباحُ إلى حقلِنا اليائسِ
في الطَّريقِ إلى حقلِنا اليائسِ
شَجَرٌ يابِسٌ كم وَعدْنا
أن نظَلّ سَريرين، طِفلين، في ظلِّهِ اليابس

لاقِني، هل رأيت الغُصون سمعت نداءَ الغُصون
تركت نسغها كلاَما

كلماتٌ تشدُّ العيونْ
كلماتٌ تشقّ الحجارهْ

لاقِني، لاقِني . . .
كأنّا التقينا، ونسجْنا الظّلاما

ولبسنا ـ وجئنا ـ قرعْنا على بابه ، رفعنا السّتارَه
وفَتَحْنا شبابيكَه وانزوينْا
في حنايا الجذوعْ
واستَغثْنا بأجفانِنا وسكبْنا
دَوْرَقَ الحلم والدّموعْ
وكأنّا بقينا
في بلاد الغصونِ، أضعْنَا طريقَ الرّجوعْ .

# غابة السحر

لِيكُنْ،
جاءتِ العصافيرُ وانضَمَّ لفيفُ الأحجار للأحجارِ
لِيكنْ،
أُوقظُ الشّوارعَ واللّيلَ
ونمضي في موكبِ الأشجارِ
أَلْغصونُ الحَقائبُ الخُضْرُ والحلْمُ وسادٌ
في عطلةِ الأسْفار
حيث يبقى الضّحى غريباً ويبقى
وَجههُ خاتماً على أسراري.

لِيكُنْ،
دَلّني شُعاعٌ وناداني صَوْتٌ
من آخر الأسوارِ. . .

# شجرة الأهداب

. . . وحينما استسْلَمتْ في جزيرةِ الجفونْ
ضيفاً على الأصدافِ والجِرارْ،
رأيتُ أنَّ الدّهرَ قارورَهْ
تجمعُ بين الماءِ والشّرارْ
وتَمنح الإنسانَ أن يكونْ
أسطورةً أو نارَ أسطورهْ،

وكنتُ محمولاً على الغصونْ
في غابةٍ بيضاءَ مسحوره
نهارُها المنذورُ للجنونْ
مَدينتي، واللّيلُ مقصورهْ.

# شجرة الكآبة

وَرَقٌ يتقدَمُ يرتاحُ في حُفْرةِ الكتابة
حاملاً زهرةَ الكآبَة
قبلَ أن يُصبحَ الكَلامُ
صَداً
يتناسلُ في قشْره الظَّلامُ

وَرَقٌ سائحٌ يتقدمُ يرتادُ أرضَ الغرابَة
غابَةً بعد غابَة
حاملاً زَهْرَةَ الكآبَة. . .

# اقليم البراعم

مرَّ هنا إيكارْ
خيَّم تحتَ الورَقِ الشاحبِ شمَّ النّارْ
في غُرفِ الخُضرةِ في البراعمِ الوديعَهْ
وهَزَّ،
هَزَّ الجذْع ، واستجارْ
والْتَفَّ كالوشيعَهْ
ثمَّ انتشى وطارْ . .

لم يَحترقْ ـ لَمّا يَعُدْ إيكارْ.

(١٩٦٣)

# الصقر

«وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت، وسبح الغلام أخي، فالتفتّ إليه لأقوي من قلبه، فلم يسمعني واغترَّ بأمانهم وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومضيت إلى وجهي: أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي».

عبد الرحمن الداخل

(صقر قريش)


www.alkottob.com

# ١ ـ أيام الصقر

هَدأَتْ فوق وَجْهِي بينَ الفريسةِ والفارس الرِّماحُ
جَسَدي يتدحْرَجُ والموتُ خُوذَتِهُ والرِّياحُ
جُثَثٌ تتدلّى ومَرْثِيّةٌ، ـ
وكأنَّ النّهارْ
حجَرٌ يثقبُ الحياةْ
وكأنَّ النّهارْ
عَرَباتٌ من الدّمعِ ،

غَيِّرْ رنينَكَ يا صوتُ،

أسمعُ صوتَ الفراتْ:

ـ «قُرَيْش . . .
قافلةٌ تُبحر صوبَ الهِنْدْ
تحملُ نارَ المجدْ.»

. . . والسَّماء على الجُرح مَمْدودَةٌ، والضِّفافْ
تتهامَسُ، تَمْتَدُّ:
بيني وبين الضِّفافْ
لُغةٌ، بيننا حِوارْ
حَضَنَتْهُ الْكَراكِيُّ، طافَتْ به كالشّراعْ
بيننا، ـ
(وافُراتاهُ، كنْ ليَ جسْراً، وكن لي قِناعْ)
وتَرسَّبْتُ،

غيْرَ رَنينكَ يا صوتُ، أسمع صوتَ الفراتْ:

ـ «قُريشْ. . .
لُؤلُؤةٌ تشعُّ من دِمشْقْ
يُخَبِّئها الصَّندلُ واللُّبانْ
أرَقُّ ما رقَّ له لبنانْ
أجملُ ما حَدَّثَ عنه الشَّرْقْ. . .»

. . . وأنَا في فضاء الجنادبِ تحتَ الغيوم الجريحَةْ
حجَرٌ مَيّتُ الجنَاحْ

حجَرٌ مَيّتُ القوادمِ ،
والموتُ يُسْرجُ أفراسَهُ،
والذّبيحهْ
بَجعٌ يتخبّطُ،

غَيِّرْ دَوِيَّكَ يا صوتُ
أسمعُ صوتَ الفراتْ:
ـ «قُرَيشْ . . .
لم يَبْقَ من قُريش
غير الدّمِ النّافرِ مثلَ الرمحْ
لم يَبْقَ غيرُ الجُرحْ»

افتَحي يا بَراري مصاريعَ أبوابكِ الصَّدِئاتِ :
مَلِكٌ والفضاءُ خراجي ومملكتي خُطواتي
مَلِكٌ أتقدّم أبني فُتوحي
فوقَ هذا الجليدِ المؤصّلِ ، فوق الجموحِ

أعرفُ أن أجرحِ الرّملَ، أزرع في جرحِهِ النَّخيلا
أعرف أن أَبْعثَ الفضاء القَتيلا،
والطّريقُ يُدَحْرِجُ أهوالَه ويَضيقْ
والطّريقُ مرايا
كتبٌ ومرايا
أتقرّى تجاويفَها
أتفرّسُ
ألمسُ فيها بقايا
فارسٍ عاشقِ الخُطى
أقرأ الخطوة والعشب والنّخيلَ، وأفقاً
نسَجَتْه التّنهّداتُ القصيره
حيث لا يهدأ الحريقُ
حيث لا تَنْتهي الخطوات الأميرْه.

في الشّقوقِ تَفَيات
كنْتُ أجسُّ الدّقائقَ
أمْخضُ ثَدْيَ القِفارْ
سرتُ أمضى من السّهْم أمْضى
عَفَرْتُ الحصَى والغُبارْ

كانتِ الأرضُ أضيقَ من ظلِّ رُمْحيَ ـ مُتُّ
سمعتُ العقاربَ كيف تَصيىءُ، هديتُ القَطَا في المجاهلِ ـ
مُتُّ، انْحنيتُ على الأرضِ أكثرَ صبراً من الأرضِ ـ مُتُّ
انْكَبَبْتُ على كاهلِ الريحِ
صلّيتُ
وَشوَشْتُ حتى الحجارْ
وقرأتُ النّجومَ، كتبت عناوينَها ومحوتُ
راسِماً شَهْوتي خريطَهْ
وَدَمي حِبْرُها وأعماقيَ البَسيطَهْ.

سَاهِرٌ بين جَذْري وأغصانِهِ والمياه
نَضبتْ،
والتّوابعُ مملوءةُ الجباهْ
زَهَراً يابساً وقبوراً وديعَهْ،
صاعدٌ لِبروجِ التحوّلِ حيث الفَجيعَهْ
حيث يسّاقَطُ الرّمادُ
حيث يسْتيقِظُ النَّشيجُ ويَنْطَفيءُ السّندبادُ.

لو أنّني أعرفُ كالشّاعر أن أغيّر الفصول
لَو أنّني اعرف أن أكلّمَ الأشياءْ،
سحرت قبر الفارسِ الطّفل على الفراتْ
قبر أخي في شاطىء الفرات
(مات بِلا غسْلٍ ولا قبْرٍ ولا صلاة)
وقلتُ للأشياء والفُصولْ
تواصلي كهذهِ الأجواءْ
مُدّي لِيَ الفُراتْ
خَلّيهِ ماء دافقاً أخضرَ كالزّيتونْ
في دمي العاشقِ في تاريخيَ المسْنونْ.

لو أنّني أعرف كالشّاعر أن أشاركَ النّباتْ
أعْراسَهْ،
قنَعْتُ هذا الشّجَرَ العاريَ بالأطفالْ،
لو أنّني أعرفُ كالشّاعر أنْ أدَجّنَ الغَرابَه
سَوّيْتُ كلّ حَجَرٍ سحابَةْ
تُمْطرُ فوق الشّامِ والفراتْ،
لو أنّني أعرفُ كالشّاعر أن أغيرّ الآجالْ

لو أنّني أعرفُ أن أكونْ
نُبوءَةً تُنْذِرُ أو علامَهْ،
لَصِحْتُ يا غمامَهْ
تَكاثفي وأَمْطري
باسْمِيَ فوقَ الشّام ِ والفراتْ
باللهِ يا غمامَهْ . . .

أَلسّماءُ انفَتَحتْ،
صارَ التّرابْ
كُتباً، واللهُ في كلّ كتـابْ
ساهرٌ
لم يبقَ في وَجْهِيَ صخرٌ نائمٌ، لم يبق في عيني سَرابْ، ـ
عَلامَةٌ تأتي من الفُراتْ:
أنا هُوَ السَّاكِنُ في طوقكِ يا حمامَهْ
في سرْبكَ الرّاحل ِ يا خَطَّافْ
أنا هوَ الواضِعُ كالعَرّافْ
رُؤياه والعلامَهْ
في الأفْق في لُغَاتِهِ الكثيره
أنا هوَ الفراتُ والجزيرهْ.

علامةً . . .
مَهْلَكَ يا حَنيني . . .
أَلصَّقْرُ في باديةِ العروق في مدائنِ السّريرهْ
أَلصَّقْرُ كالهالةِ مرسومٌ على بوّابةِ الجزيرهْ
والصَّقْرُ تَطْريزٌ على عبَاءَةِ الصّحراءْ
والصّقرُ في الحنينِ في الحيرة بين الحلْمِ والبُكاءْ
والصّقرُ في مَتاههِ، في يأسه الخلّاقْ
يَبْني على الذُّروةِ في نهايةِ الأعماقْ
أندلس الأعماقْ
أندلس الطّالع من دمشقْ
يحمل للغرب حصادَ الشَّرْقْ.

يكتبُ الصّقرُ للفضاء لمجهولِه السَّخيّ
سائلاً عن مكانٍ، كشرْيانِهِ نَقيّ
يُومىء الصّقرُ للصّقورْ -
مُتْعَبٌ، حَملتْهُ مَتاهاتُهُ، حملتهُ الصّخورْ
فَحنا فوقها، يغذّي مَتاهاتِهِ ويُغذّي الصّخورْ
وجههُ يتقدّمُ والشّمس خُوذَيّهْ،
والفضاءْ

مَوْقِدٌ،
والرّياحُ عجوزٌ تقصُّ حكاياتها،
والصّقورْ
مَوكبٌ يفتَحُ السّماءْ؛

يرفَعُ كالعاشقِ في تفجّرٍ مَرِيدْ
في وَلَهِ الصّبْوةِ والإشراقْ
أندلسَ الأعماقْ
يرفَعُها لِلكون - هذا الهيكلِ الجديدْ
كلُّ فَضَاءٍ باسْمِهِ كتابٌ
وكلُّ ريحٍ باسْمِهِ نَشيدْ.

(ربيع ١٩٦٢)



# تحوّلات الصقر

كادت الفاقة أن تكون كفراً.

حديث شريف

عجبت ممن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه.

أبو ذر الغفاري


www.alkottob.com

# ١ ـ فصل الربيع

هدأت صيحةُ البَراري :
ألغيومُ تَسير على النَخل
تَجنح في آخر النّخل وَرْديّةَ الصَواري ؛

هَدأَتْ صيحةُ الرَجوعْ :
أسألها ـ دمشقُ لا تُجيبْ
لا تُنقذُ الغريبْ
ـ «هَل مرَّ؟ إن يمرّْ
ماتَ بلا صوتٍ هنا أو سِرّْ .»

ساكِنٌ حيث تَغفو تُطيل الزَفيرْ
في حقول البُكاءْ
في السَرير الذي فَرشَتْهُ الدّموعْ

في الممرَ الصَغيرْ
بين أجفانها والسَماءْ.

.. هَدأتْ صيّحةُ الرَجوعْ:

ليس في عينيَ شيءٌ من حياتي
غير أشباحٍ حزينه
غيرَ أنَّ الشَجَرَ الباكي على أرض المدينَه
عاشِقٌ يسكن قلبي ويغنّي أغنياتي؛ ـ

يا مرايا الضَياعِ الطَويلْ
غَيّري صورة القمَرْ
لم يَعدْ وجهها هناكْ
أمس كنَا على القَمَرْ
فرأيناه عارياً
ورأيناه في الثَيابْ
وصُعِقْنا من النَظَرْ
كان وجهاً من التُرابْ

غيّري صورة القمرْ
لم يعد وجهها هناكْ
يا مرايا الضّياعِ الطّويلْ...

هدأتْ صيحةُ الرجوعْ:

أَمضي ويَمْضي معيَ الفُراتْ
تَتبعني الأشجارُ كالرّاياتْ
تَتْبعني عينان من مجامرِ السّنين
أَرقصُ في خواصر التّينْ
مع نجمةٍ سوداءْ.

غيرَ أنَّ الصّواري
نغَمٌ جارحُ القرارِ:
«إن جسمي ومالكيهِ بأرضٍ
وفؤادي ومالكيهِ بأرضٍ»[1].
هَدأَت صَيحة الرّجوعْ
غير أنّ الصّواري وطنٌ لِلدّموعْ:

«. . . ولو انّها عقلت، إذن لَبكَتْ
ماءَ الفراتِ ومنبتَ النَخْلِ». (٢)

هدأت صيحة الرَجوعْ :
حائِرُ حائِرٌ، ولي لغةٌ تهدر مخنوقَةٌ ولي أبراجْ
حائرٌ أصلبُ النّهارَ ويُغويني رعبٌ في صلْبِهِ وهياجْ
حائِرٌ تأخذ الشواطىءُ ميراثي وتحمي صباحيَ الأمواجَ،

. . . «غنيتُ عن روضٍ وقصرٍ شاهقٍ
بالقَفْرِ، والإيطانِ في السُرادقِ
فقل لمن نامَ على النَمارقِ
إنّ العُلى شُدَّت بهَمٍّ طارق
فاركبْ إليها شبَحَ المضايقِ
أوْلا، فأنتَ أرذلُ الخلائقِ». (٣)

هدأتْ صيحة الرجوعْ :
طاغٍ ، أدحْرجَ تاريخي وأذبحه
على يديَّ، وأحييه،

ولي زَمَنٌ أقودُهُ، وصباحَاتٌ أعذّبها
أعْطي لها اللّيلَ، أعطيها السّرابَ، ولي
ظِلّ ملأتْ به أرْضي
يطولُ، يرى، يَخْضَرُّ، يحرقُ ماضيه ويحترقُ
مِثلي
ونحيا معاً نمشي معاً وعلى
شِفاهِنا لُغَةٌ خضراءُ واحدةُ
لكنّ أمامَ الضّحى والموتِ نفترقُ.

هدأت صيحة الرّجوعْ:
أحلمُ يا دمشقْ
بالرّعب في ظلالِ قاسيونْ
بِالزمنِ الماضي بلا عيونْ
بالجسدِ اليابسِ، بالمقابرِ الخَرْساءْ
تصيحُ: يا دمشقْ
موتي هنا واحترقي وعودي
تصيح: لا، مُوتي ولا تَعودي
أيّتها الطّريدةُ المليئةُ الفخذين يا دمشقْ.

يا امْرأةً منذورةً لكلِّ من يَجيءْ
لِلحظِّ أو للعابرِ الجَريء
ترقدُ في حُمَّى وفي ارتخاءْ
تحت ذراع الشَرقْ
رسمتُ عينيكِ على كتابي
حملتُ ميراثكِ في شبابي
في الغُوطةِ الخضراء في سفوحِ قاسيونْ
يا امرأةً للوحلِ والخطيئةْ
أيتها الغواية المضيئةْ
يا بلداً كان اسمُهُ دمشقْ . . .

أمسِ ،
أنا والشَعرُ والنَّهارْ
جئنا إلى الغُوطةِ واقتحمْنا
بوَّابةَ الرَجاءْ
نَستَصرِخُ الأشجارْ
نَسْتصرخُ الحقولَ والمياه
ننسج منها رايةً وجيشاً

نغزو به سَماءكِ السّوداءْ
ولم نَزَلْ ننسج يا دمشقْ
لا الموتُ يُلهينا ولا سِواهْ
أنّى لنا الموتُ أو الرّاحةُ يا دمشقْ؟

وأمسِ في نومي يا دمشقْ
سَوّيتُ تمثالاً من الصّلصالْ
حفرتُ في خطوطه البيضاءْ
تاريخكِ الأسودَ يا دمشقْ
ورحتُ في رُعْبٍ وفي ابْتهال
أسقط كالزّلزال
على روابي جلّقَ الجميلَةْ
أحضنُها أضربها أغنّي ـ هاها هَلا هَلالْ
وقلتُ: لا ، فلْتَبْقَ في حنيني
وفي دمي دمشْق
وقلتُ: لا ، فَلْتَحترقْ دمشْق
واسْتيقظَتْ أعماقيَ القتيلةْ
مَذعورةً تصيحُ: وَادَمشْقْ . . .

يا امْرأةَ الرّفضِ بلا يَقينْ
يا امرأةَ القَبولْ
يا امرأةَ الضّوضاءِ والذّهولْ
يا امْرأةً مليئةَ العروق بالغاباتِ والوحولْ
أيّتها العاريةُ الضّائعة الفخذين يا دمشقْ،
تُصْغِين للموتى وللقبور والتّكايا
تُصْغِينَ في خُشوعْ
وتَعشقينَ الجُثَثَ الصفراءَ والضّحايا
وتأكلينَ الطّينَ والدموعْ
أيّتها المنهومَةُ القاضمةُ القشور يا دمشق . . .

يا حُبُّ، لا . . .
عفوكِ يا دمشقْ
لولاكِ، لم أهبطْ إلى الأغوارْ
لم أهدم الأسوارْ،
لم أعرفِ النّارَ التي تُنادي
تَضِجُّ في تاريخنا، تُضيءْ
سفينَة الكونِ الذي يجيءْ؛

عفوَكِ يا دمشق
أيّتها الخاطئة القدّيسة الخطايا . . .

---

١ ، ٢ ، ٣ أبيات تنسب إلى صقر قريش ، (عبد الرحمن الدّاخل).

## ٢ - فصل الصعود إلى ابراج الموت

مَرّ عليَّ اللّهَبُ الطّالع بعد الرَجْمْ
وَالْتحمت في خَطْويَ الجُسورْ
أعرفُ أن أجريَ مثل الماءْ
في رئةِ الصحراءْ
أعرف بعد الآن أن أغيّر العصورْ
أن أمزجَ العصورَ بالعصورْ
أعرف أن أعيدَها
قصيدةً أو ثورةً أو حلمْ . . .

أسرعي يا سَحابةْ
أيّ أغنيّةٍ تُنشدينْ؟
أسرعي أسرعي يا سَحابةْ

ما الذي تحملينْ
أيَ جبَانَةٍ أو ربابَه؟

ألمح نهراً يسافرُ، يكبو وينهض في رأسيَ البعيدِ
عاشقاً يتقصّى رُؤايَا
جالباً آخذاً بريدي
حفرته المسافةُ بيني وبين خُطايا . . .

خيمتي زوجةٌ تلينُ كأطرافي
وتحنو، وتنحني، وتضيقُ
صَدِئتْ، والبريقُ
حجرٌ جالِس على طَرَف الوجه نبيٌّ لدمعهِ وصديقُ.

ما الذي تحملينْ
ايَ اغنيَةٍ تنشدين؟
أسْرِعي أسْرِعي يا سحابَه . . .

جَسَدِي ضائعٌ، صار قبريَ كالخيط في كُفَّةِ العَباءهْ
في الدُّجى،
والشِّباك التي تَتصيَّدُ أشباحَه، وَوَهْم الإضاءه.

أسمعُ صوتاً يجرّ على الرّمل أيّامه الثّقيلَهْ
أسمع أحلامَه القتيله
كلَّ حلْمٍ قبيلةْ
والخيامُ حناجرُ مشدودةٌ والجبالُ صَلاةٌ:
ـ «علَّقينا هنالك، بالنَخل بالعُشب
حيث الحياةُ
وَارْبطينا إلى الماءِ...
ـ «لا ماءَ، لا عاصمٌ، والنبيّون ماتوا».
أسمعُ تحتَ المناديل بين الرُّكامْ
في الضّحى، في انكسار السّماء على الأرض،
في دَرجاتِ الظَّلامْ
وَهْي تعلو وتَسقطُ، بين المدينة والشّمسِ،
بين الصّدى والأنينْ
أسمعُ مثلَ الحنينْ

مثلَ نبْضِ اللّيونة في صخرةٍ لا تلينْ
مثلَ دَفْق الينابيعِ مثلَ الكلامْ:
ـ «نحن يا جائعُ كنّا مُتْخمينْ
لم يكن موكبنا يمشي وراءَكْ
لم يكفّنْكَ ولا صلّى عليكْ
نحن يا جائعُ لم نسمع نداءكْ...
نحن صرنا جائعينْ
فتقبلْنا لديكْ،
أمس، عدنا مُتعبينْ
فارتمينا وتوسّدنا السّنينْ
وحلمنا،
ورأينا
أنّنا في الحلم صلّينا عليكْ...»

ألمحُ نفسي هنالكَ في آخر الرّصيفِ
(جسدي حُفرةٌ خاويهْ)
أعرف نفسي هنالك في شَهْوةٍ ضاريه
في جبينٍ تعوّجَ فوقَ الرغيفِ،
أعرف نفسي هنالكَ في طفلةٍ قتيلهْ
في السُّعال المدوّر والرّئة المستطيلَهْ

حامِلاً صخرة المدينهْ
مائِلاً كالقَناطر في قُبّة المدينهْ
غامراً أنّةَ المدينهْ :
«أسمعُ صمت الدّهرْ
يحملُ أكفانَ الرؤى ويغسل الجفونْ
يَزرع أشجاراً بلا غصونْ
حول ضفاف العُمْر» .
وهنا ، بين الشّقوقْ
فارسٌ يُسرج عينيهِ على ضوء العروقْ
يحضن الأرض ويستسلمُ للأرض ويغفو
مثلما تَسْتسلم النّخلةُ للأرض وتغفو
في عَباءاتِ الفَضاءْ
مَطَراً يأتي وواحاتِ رجاءْ .

أعرفُ ـ صارتْ يداكْ
خيمةً تتموجُ كالغيم شفّافة السّماءْ
أعرفُ ـ صار الفضاءْ
وَرَقاً أخضراً يتطايَرُ في بيتكَ الغريبْ
فأنا مِن هناكْ

أيّها الجائعُ الغريبْ
ماتَ صوتي هناكْ
عاش صوتي هناكْ
كان صوتي نبيّاً رميتُ على شمسه ردائي
كان شمساً من الدّمع مجروحةً ورائي. . .

تائهٌ؟ كيفَ؟
هاتِ صدرَكَ، يا تائهُ، واستمهل المدى والمسافَةْ
فَرشت طفلتي لك الحلمَ والنّخْلَ وغزلانَهُ
وعنْقَ الزّرافَةْ
وروى حلمُها لجوعكَ، وقتَ النوْم،
أسطورة الجفون القصيرةْ
حيثُ تغفو ولا تنامُ
وتَستَنْفَرُ في صَدْركَ الرياحُ الأسيره. . .

للرّوابي نارٌ، وللنّخل أوتارٌ
وفي اللّيل صَهْوةُ المعراج
حيث تَصّاعد الخُطى

ويصيرُ الحلمِ لوناً في سُلَّمِ الأبراجِ
ويطول البحرُ القصيرُ
وتهوي الرّوحُ في جاذبيّةِ الأمواجِ.
علامَةٌ:
«أعلو مع الهواءْ».
علامَةٌ:
«لي فَرسٌ.. وها هوَ الإسراء».
علامَةٌ من أوّل الزّمانِ:
«مِن ساحرٍ يأتي بلا دخان
من حَجَرٍ يصيرُ ياسمينَهْ
يحبل صمتُ الأرض بالأغاني
وتُولَدُ المدينه».

كانَ أنْ نَوَّر النّخيلُ وأثمرَ في صرَخاتي
حيث لاقاني الخضر، صلّى صَلاتي
حيث تجتاحني كلماتي،
كان أن صارتِ الجرارْ
لغةَ الماء والعيونْ
كان أن أصبحَ الجنونْ

فَرَساً لِلنّهارْ؛ -
كلّ شيءٍ يُسافر بين السّنابلِ
يحمل أسرارَهُ، يَسْتَديرْ
خَشِناً، طيّباً كالرّغيفْ،
كلّ شيءٍ يسافرُ بين السّنابل
يهجرُ تاريخَهُ الأليفْ
كلّ شيءٍ يَصيرْ
نَوْرساً يتموّج حول المياه العميقَهْ
في مَدى بَحْرَي الصّغيرْ -
بَحْرِ أحلاميَ الصّديقَهْ.

تائِهٌ؟ كيف؟
هاتِ صدرَكَ، يا تائِهُ، واستعجل المدى والمسافَهْ
فَرَشَتْ أرضُنا لكَ الحلمَ
والنّخلَ وغزلانَهُ
وعنقَ الزرافَهْ:
حانَ ميعادُنا، والتّلالُ
لبستْ خُفَّها، سَبَقَتْنا التّلالُ.

تحتَ موج المدينهْ
فمقمَ أخضرُ فَرشتهُ الرّياحْ
ملكُوتاً، ونامَتْ
فوق ريش النّهارْ
صار وجهي سوارْ
للمدى، لِلسَفينه
لِلشّطوط الحزينه،
طابَ، طابَ الرّجوعْ
لبلاد الحصون الأمينه:
نَهضت قبلَنا الرّياحْ
وَجرارُ الدّموعْ
غَسَلت جَبْهةَ الصّباحْ.

سَأغنّي هناكْ
سيكونُ قناعي غريباً:
يداي طريقٌ وقوسان،
رأسيَ نَهرٌ
وَوَجْهي جزيرهْ

ساُصيرُ حبيباً يُغامِرُ، أو عاشقاً مَلاكْ
سحرتْهُ الأميره.

مَن يُريد طريقاً من البَرْق،
من يَشْتَهي السَماءْ
وهْي حُبلى بأحلامِه، والطَّريقُ
فَرَسٌ حوْلها يدورُ:
مِن هُنا تبدأ الطَّريقُ
مِن هنا يبدأُ العبورْ
مَن يريد طريقاً مِن البرق، مَن منكمُ الرَّفيقْ؟

حانَ ميعادُنا،
مَن يلمُّ البُقولْ
مَن يهزّ الغصونَ المخفيَهْ
في سُهول الرّؤى ويجرّ الخيولْ
من بُحيراتها القصيّه
نَهَراً مُوحِشَ الرحيل أنيساً إلى الرَّحيلْ؟

مَن يُقيم على البلْح داراً ويلبسُ كوفيّة النَخيل؟

حانَ ميعادُنا، والتّلالُ
لبست خُفَّها، سبقتْنا التّلالُ.

# ٣ ـ فصل الصورة القديمة

زَمَنٌ يَنتهي، وخيولٌ منَ الفجر محلولةُ الشّكيمهْ
ترسمُ الصّورةَ القديمه
لأحبّائيَ الحيارَى
في الضّفاف الحزينة في آخر الصّحارى،
آه يا شكليَ القديمْ
(كيف يأتي، يعود الغريبُ إلى شكله القديمْ؟)
وبأيّ اللّغاتْ
ساحيّي الفراتْ ـ
ألسّريرَ الذي هزّني وسقانيَ من مائِه الكريمْ؟

سأشقّ عروقي
نَهَراً يحمل الفَضاءْ
سأدورُ مع الكوكب المغرّبِ أو جمرة الشّروقِ
لابِساً قامةَ الهواء

وأعود إلى نصفيَ المقيمْ
في الضفّاف الحزينة في آخر الصّحارى

أعطني أن أغنّيَ أحبابيَ الحيارى
أعطني أن ألفّ حياتي
وَرَقاً،
أن أسيرا
في جُذُور الرَّمادْ
أعْطني أن أكاشف هذي العصافيرَ هذا الجمادْ
أعْطني أن أكون الحصى والحريرا.

في زَمَن اللّيْلَكِ والسّنونو والنّورس العاشق والأعيادْ
جئتُ إلى بغدادْ
على بساطٍ جامحٍ وديعْ
كانت حقول العشب والنّباتْ
كانت رمال الماء والصّحراءْ
والسّفنُ الزنجيّة العينينِ في الفراتْ
حنْجرةً خضراءْ

تستقبل الآتي بلا تخومْ
في موكب الأمطار والغيومْ
من جهة الأرض، من الرَبيعْ...

أقرعُ أجراسَ الدّمِ الخفيّ
تحت رداء الأرضْ
أصعدُ في المشاعل المقيمةْ
تحت جليد الرّفضْ
أجري مع الفراتْ
في زمنٍ سحريّ
من منبع الطّفولةِ القديمةِ الشّيخوخةِ القديمه.

كلّ دَم الفراتْ
في جسدي يجري وفي حنيني
وها أنا أزنّرُ السُّهولْ
أسهرُ في الأكواخ والحقولْ
أشدّ بالصيّفِ يدَ الشتاءْ
أسيلُ أحلاماً على التّرابْ

لا سَفَرٌ فيها ولا غيابْ
أسيلُ طوفاناً من البقاءْ
أطردُ عن شواطئي
بحَّارة الرَّحيلْ
أهبطُ في أغواريَ الزَّرقاء في أُرومَةِ القرابَه
أبحثُ عن بديلْ ـ
أبحثُ عن بَوّابَةِ الغرابَهْ.

جئتُ إلى بَغْدادْ
في سَعَفِ النّخل وماء النَّهْر
في رئة العُصفورْ

(ثَمَّةَ سَجّانٌ من الدماءْ
تحرسهُ التّيجانْ
يحرسُ أقفاصاً من الرؤوسْ
من جُزُرِ الأحلام والبُكاءْ؛
خَبّيتُها، ملأتُ أغنياتي
باللَّهَبِ الأرضيِّ بالفؤوسْ
ورحتُ مسحوراً، بغيرِ سحْـرٍ،
أخترقُ السَّجانْ

أقتحمُ المدافِنَ الطَويلهْ
أدخلُ في الأقفاص في أبعادها النّحيله
أشعل غاباتٍ بلا نهايةْ...)

جئتُ إلى بغدادْ
في سَعَف النّخل وماء النّهرْ
في رئة العُصفُورْ
كان أبو تمّامْ
مشتعلاً كالجمْرْ
خلف شتاء اللّيل والأحلامْ
يكتب أغنيّه
بالقصب المكسورْ
بنجمة الميلادْ
عن رحلة الصيّفِ الشّتائيّهْ
سوداء سحريّه
تحيّةَ الآتي إلى بغدادْ.

لم يكن في الشّوارع، في الماء بين القبورْ
غيرُ صَمْت القيامَهْ
ورأيتُ النواسيَّ يَهْذي ويحضن قارورةَ الكيمياءْ

مُؤذناً بالعبورْ:
«كلّ رمحٍ حمامَةْ
كلّ أرضٍ سماءْ»
وسمعتُ النواسيّ مستطرداً كلامَهْ
حارِقاً غابةَ السّكينهْ:

«ذاتَ يومٍ،
تصيرُ القصائدُ بوّابةَ المدينَهْ
نحو أرضِ الغرابَهْ
وتصيرُ الغرابَهْ
وطنَ الأنبياءْ،
ذاتَ يومٍ،
تسيرُ النجومُ على الأرضِ مثلَ النّساءْ».

جئتُ إلى بغدادْ
أخطو على بِساطِ
بين خيوطِ الماءِ والأشجار
أسيرُ في أغواريَ البعيدَه
ألبسُ وجهَ النّارْ

أستنطِقُ الأرضَ الفراتيّهْ
حَكَى ليَ الفراتْ
ما قرَأ العشبُ وما رَواهْ
عن سَفَر الأنهار والرّعاةْ
حكَى ليَ الفراتْ
عن كلّ ما رآهْ...
أسمع في الأحجارْ
أغنيّة الفُصولْ
أسمع ما تقولْ
تلك السّحابات الرّماديّهْ...

ورأيتُ الحشودَ الفقيره
جُدّلت كالضّفيره
وقرأنا، كتبنا معاً، وعرفْنا
أنّنا المالكون اليتامى
وصرخْنا، جعلنا مقابرَ آبائِنا، وجعلنا الأيامى
وبراكينَنا السّجينَهْ
نَهَراً يغسل المدينَهْ...

وركضنا إلى العشبِ، نُصغي إليهْ
ساحِراً، باسطاً يَديهْ
طالِعاً من شقوق التّراب نقيَّ الكلامْ
وعرفنا من العشب أنَّ الطّبيعةْ
سَتقيمُ السّلامْ
بين أطفالنا والفجيعَةْ

ستكون شرايينُهم كالجذورْ
وتشقّ الصّقيعْ
وتصيرُ جبالاً من الضّوء ورديّة الجُسورْ
تصل الموتَ بالرّبيعْ
وتقومُ البذورْ
وتقومُ الصّلاةْ
في رواقٍ على النّيل يَسمَعُ تسبيحةَ الفراتْ...

ألزّمنُ اخضرَّ، نما، وَطالْ
أورقَ في الجُدران والحصونْ
ألزّمن الأنهارُ والتِّلالْ

والزَّمَنُ العيونْ:
قاماتُ أشجارٍ ربيعيّةْ
في غابَةِ الروحِ الفراتيّةْ...

ألزّمن السّيفُ هديرُ الموتْ
نهرٌ من الأضاحي
نهرٌ من الأنداءِ والجرارْ
يغسل وجه الموتْ
والكفنَ العاشقَ والأحزانْ
يغسلُ بالموتِ وعِطْرِ الموتْ
فاتحةَ القول: رنينَ الصّوتْ
في لغة الإنسانْ.

ألزَّمَنُ استيقظَ والنَّهارْ
يصرخ بالأغصان والجذورْ
يصرخ: جاءَ الشِّعرْ
جاءت سماواتٌ ترابيّةْ
مِن غير هذا الدّهْرْ

خضراء إنسيّة:
ألأفقُ زنّارٌ من البخور
والأرضُ جنّيةْ.

# ٤ ـ فصل الأشجار

(مرثيات الصقر وشواهد قبره)


www.alkottob.com

## شجرة

زرَع الجائعونْ
غابةً لِلرّجاءْ
صار فيها البكاءْ
شجراً، والغصونْ
وطَناً للنِّساء الحُبالى
وطناً للحصادْ؛

كلّ غُصنٍ جَنينْ
راقِدٌ في سرير الفضاءْ
أخضراً ساحرَ الأنينْ
فرّ من غابة الرّمادْ
من بروجِ الفجيعه
حاملاً آهةَ الجائعينْ
شاكياً لِلطّبيعه.

## شجرة

كلّ يومٍ،
يموتُ وراء المقاصير طفلٌ، يموتُ
زارعاً وجههُ في الزّوايا
شبَحاً تتراكض قُدّامَهُ البيوتُ؛
كلّ يومٍ،
يَجيءُ من القبر طيفٌ حَزينْ
عائِداً من بلاد المرارة من آخر الأقاصي
ويزور المدينة ـ ساحاتِها والتّكايا
ذائباً كالرّصاصِ.
كلّ يومٍ،
تجيء من القفر جنيّة الجائعينْ
وعلى وجهها علامَه ـ
زهرةٌ أو حمامَهْ.

# شجرة

يجهل أن يزيّنَ السيوف بالأشلاءْ
يجهل كيف تُبرقُ الأنيابْ.
يأتون في نَهْرٍ من الرؤوس والدّماءْ
ويصعدون الحائطَ القصيرْ
وَهْو وراءَ البابْ
(يحلمُ أن يظلَّ كالأطفال خلف البابْ)
يقرأ فصل الجائع الأخيرْ.

# شجرة

سقطَت نَجْمَتانْ
فوقَ رأسِ الغريبِ المسافرِ، مَرّت سحابَةْ
فهوَى، يأخذ التحيّة
نخلةٌ تتقصّفُ والدّمع يَنْقُشُ أوراقَها الذهبيّةْ:
نَخلةٌ علّمتْها الكآبَةْ
أنّها تُرْجُمانْ
أنها دَفترٌ عَربيٌّ الكتابَةْ
علّمتهُ الكآبه
في سِياج الحدودِ الخفيّةْ
أنّه أوّلُ المكانْ
والرّياحُ البقيّة.

# شجرة

قلتُ لكَ: استيقظْ، رأيتُ الماءْ
طفلاً يَسوقُ الرّيحَ والحِجارْ
وقلتُ: تحتَ الماء والثّمارْ
تحت غِشاء القَمحْ
وَسْوسَةٌ تحلمُ أن تكونْ
أنشودةً للجُرْحْ
في ملكوتِ الجوع والبُكاءْ...

انهضْ، أناديكَ، عرفتَ الصّوتْ؟
أنا أخوكَ الخضْرْ
أُسرج مُهْرَ الموتْ
أخلع باب الدّهْر.

# شجرة

لم أحمل الرّمحَ ولم أُجَوِّفْ
رأساً،
وفي الصّيفِ، وفي الشتاءْ
أرحلُ كالعُصفورْ
في نَهَر الجوع... إلى مَصبِّهِ المسْحورْ؛
مملكتي تلَبسُ وَجْهَ الماءْ:
أملكُ في الغيابْ
أملك في الدّهشة والعذابْ
في الصّحْو أو في النَّوْءْ
لا فَرْقَ إن دنوتُ أو نأيتْ ـ
مملكتي في الضوءْ
والأرضُ بابُ البيتْ.

# شجرة

كان ينادي، يَجمعُ الهواءْ
يحمل من كلِّ فضاءٍ عِرْقْ
ينسج للغرب رداءَ الشّرقْ؛
(ينزل عيسى حانياً عليه
أخضرَ كالجُمانْ
ينزلُ في المنارة البيضاءْ
في الجانب الأيمن مِن دِمشقْ
ويقتلُ الشّيطانْ
في الجانب الأيمن من دمشقْ).
وكان، والسّوادُ في طريقهِ يُضيءُ،
يُغيِّر الأسماءْ
يعشقُ مَن مات ومن يَجيءُ
ويهجر الأحياءْ.

# شجرة

خَفٌّ، لاقانِيَ الصباحُ
حَملتْني الرّياحُ
بعد أن راح قبري وودّعتهُ ورجعتُ.
كلّ شيءٍ يعودْ:
في الزُّهور قُضَاةٌ وفي الماء يجتمعُ الوافدونْ
(كان بين الشّهودْ
شجَرٌ يتَناسل فيه الأجنّة والميّتونْ
كان بين الحضور الفجيعه).
وسمعتُ الغصونْ
وهي تتلو قوانينَها، فخشعتُ
ولبستُ الطّبيعهْ.

# شجرة

عند جيرونَ بَابٌ من الوردِ يغتسلُ العابرونْ
بِشَذاهُ
عندها خَيمةٌ للجراحِ
عندها غابَةٌ لِلصبّاح
كلُّ اغصانِها جسورٌ تَقْتَفيها العيونْ
نحو عبّارة الرّياح
لِصباحٍ سِواهُ...
والَلّيالي بيوتٌ من الحلم يَرتادُها المتعبونْ
يجرحونَ مزاميرهم، يقرأونْ
كُتُبَ الماء والغبارْ
يجعلونَ الدّموعَ الأمينه
خَرَزاً وأكاليلَ غارْ
وعقوداً، وجرحاً من الوَرْد يغتسلُ العابرونْ
في ينابيعه الحزينه.

## شجرة

غطّيَ بالرّيحانْ.
بالجزَعِ الشّفّافِ، بالسّريره
بالصّمتِ،
والتمزّقِ المضيءْ؛
وقيلَ: بعدَ القَبْرِ، شَقَّ القبرَ، ألقى موته وطارْ
يبحثُ عن أمومةٍ
في وطن الإنسانْ؛
وقيلَ: كانت زوجَةٌ فقيره
هنا وراء التلَّةِ الصّغيره
حُبْلى،
وبين اللّيل والنّهارْ
في الصّمتِ،
في التمزّقِ المضيءْ،
تنتظر الطّفلَ الذي يَجيءْ.

(أيلول ١٩٦٣ - أيلول ١٩٦٤)

# تحولات العاشق

. . . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن.

قرآن كريم

الجسد قُبَّةُ الروح.

القديس غريغوار بالاماس


www.alkottob.com

- ١ -

كان اسْمُها يسير صامتاً في غابات الحروف،
والحروف أقواسٌ وحيواناتٌ كالمخمل
جيشٌ يقاتل بالدموع والأجنحة،
وكان الهواء راكعاً والسماء ممدودةً كالأيدي.
فجأةً
أورَق نباتٌ غريبٌ واقترب الغدير الواقف وراءَ الغابات
رأيتُ ثماراً تتخاصر كحلقات السلسلة
وبدأ الزهر يرقص
ناسياً قدميه وأليافه
متحصِّناً بالكفن.
كانت المرافق العضلاتُ الوجوهُ بقايا وليمةٍ لنهارٍ مرض ومات
ومدعوّين لم تولد أسماؤهم بعد...

«ورأيت موكباً من الأفراس البيض تمتطي السماء، فهرولت صائحاً: «ثعبانٌ يركض خلفي». وكرّرتُ صائحاً: «ثعبان طويل كالنخلة...»

لكنَّ موكب الأفراس أسرعَ ولم يسمعني. وقلت آخذ فرساً وأنجو
توسّلتُ وتحقّقتُ: لا صوتَ لي.
ربطتُ خاصرتي بريح الجزع، وتطايرت.

هوذا شيخٌ برائحةٍ طيبة، في طريقي
ـ «هل تقدر أن تجيرني من هذا الثعبان؟»
ـ «أنا ضعيف وهو أقوى مني. في الطريق من يجيرك، أسرعْ».
أسرعتُ حتى انتهيتُ إلى الهواء
كانت السماء ترنو إليّ أظهرُ وأغيبُ في الظلمة
والرّيح تتلقّفُ بي وتردّدني،
سمعت صوت الشيخ من بعيد:
«أمامك جبلٌ ملآن

بودائع الحياة. لك فيه وديعة تنصرك وتجيرك».

وسمعت صوتاً آتياً من الجبل:

«ارفعوا الستائر وأطِلّوا».

التفتُّ فإذا الجبل نوافذُ

والنّوافذ أطفالٌ وأمّهات. ونظرت مصعوقاً: طفلةٌ تبكي، تقول هذا أبي ثم أشارت إلى الثعبان فولى هارباً».

وامتدّت نحوي يدٌ

جذبتني وأدخلتني مكاناً لم أعرف عمره.

كان هناك سريرٌ ينتظرني. يجلس عند رأسه طيفٌ ينهض كالثدي ويلبس عجيزةً وصدراً وما تبقّى،

واستيقظ جسدي، وهوَى أسيرَ المسامِّ وخواتمِ العين والسّرةِ والطبيعةِ الثانية التي تتناسل فيها أنواعٌ ثانية من الخشخاس واللُّفّاح وسواهما من نباتات الذكورة والأنوثة،

وأخذ جلدي يتهيّأ لسقوط كوكبٍ آخر في تجاعيده.

- ٢ -

تكبرين في الجهات كلّها
تكبرين في اتّجاهِ الأعماق
تَتفَتّحين لي كالنّبع
وتستسلمين كالشجرة،
وأنا
كنتُ عالقاً بأبراج الحلم
أرسم حولها أشكالي
أبتكر أسراراً أملأ بها ثقوب الأيام؛
نقشتُ على أعضائكِ جمرَ أعضائي
كتبتكِ على شفتيّ وأصابعي
حفرتكِ على جبيني ونوّعتُ الحرف والتّهجية وأكثرتُ القراءات

كان تنهّدي سحاباً يسندُ الأفق
رداءً أنسجه وتلبسينه مصبوغاً بالشمس
وكان اللّيلُ ضوءاً يقودني اليكِ،
في طيّاتِ ثوبك اختبأت
رافقتك إلى المدرسة

سرقتْ خطواتنا أجراسَ العتبة
وانسللنا
جلستُ إلى يسارك في الصفّ
نمتُ بين أهدابك
وما رأيتكِ

في سفَرٍ لم يصل إلينا كنتِ
ثيابك الأقاليمُ والفصولُ دربكِ إليّ.

على جذوع الشجر قرأنا اسمنا
مع الحجر تدحرجنا
الشَجر أصواتٌ مثلنا والتراب تحت وهجنا ثمرة
نرافق غيمةً
نتحدث مع البيوت
والنهار يسير خلفنا مكسوّاً بالعشب
ثم تصعدين بخوراً صوب قاسيون
وفي دخانكِ أترنّح
طيّعاً، أليفاً، ولي طعمكِ الخجول.

- ٣ -

ليبير، ليبيرا، فالّوس...
خيطٌ من الفجر حامضٌ على العين يوقظنا
أحكمي عقدة الجفون.
في جسدينا يرفع الضّوءُ تلاله وراياته
واللّهبُ يمتدّ وسائدَ وسائدَ
أحكمي عقدة الجفون.
النهار يعلن الليل - استيقظي.

أخترق سفينةَ جسدي إليك
أستطلع الأرض الغامضة في خريطة الجنس
أتقدّم
أكسو ممرّاتي بالطلاسم والإشارات
أبخّرها بهذيانيَ الأدغاليّ، بالنار والوشم،
أحسَبُ نفسي موجةً وأظنّك الشاطىء:
ظهركِ نصفُ قارّة، وتحت ثدييك جهاتي الأربع.
أتشجّر حولكِ
وأهوي، بينك وبيني، نسراً بالآف الأجنحة.

أسمع أطرافك الهاذية
أسمع شهقة الخاصرة وسلامَ الأوراك
يغلبني الحالُ
أدخل صحراء الجزع هاتفاً باسْمكِ
نازلاً إلى الأطباق السفلى
في حضرة العالم الأضيق ـ
أُشاهدُ النّار والدمع في صحنٍ واحد
أُشاهدُ مدينةَ العجب
وتسكر أحوالي
هكذا يقول السيد الجسد.

أيّتها المرأة المكتوبةُ بقلم العاشق
سيري حيث تشائين بين أطرافي
قفي وتكلّمي:
ينشقّ جسدي وتخرج كنوزي
زَحزحي نجوميَ الثابتة
وَاسْتلقي تحت سحابي وفوقه
في أغوار الينابيع وذرى الجبال.

تجتمع حولي أيّام السّنة
أجعلها بيوتاً وأسرّة وادخل كلّ سريرٍ وبيت
أجمع بين القمر والشمس
وتقوم ساعة الحب
أنغمسُ في نهرٍ يخرج منك إلى أرضٍ ثانية
أسمع كلاماً
يصير جنائنَ وأحجاراً أمواجاً أمواجاً
وزهراً سماويّ الشوك
هكذا يقول السيد الجسد.

عاليةً عاليةً عالية
صيري وجهي الطالع من كل وجه
شمساً لا تطلع من الشّرق لا تغيب في الغرب
ولا تستيقظي ولا تنامي...
أصعد إليكِ هابطاً إليك
أجمع أقاصي همومي وأطرافَها

وأهجم عليك بقلبي
وأقول للوسوسة أن تطوف بي على كل خليّةٍ فيك.

تنصبين سريرك
أو تفرشين الأرض
نزرع أشجار الجسد
نَتغطّى بأصواتنا
إلى أن يحين ميقات الظهور.
اغتربَ الجسد
مسّه التحول
وَجَع المفاصل نبضُ الأطراف هندسةُ العضل وأُبّهةُ الفعل
الانقباضُ التقلّصُ الانفساخُ
مهابطُ الجسد مصاعده سهولُه ومدارجهُ التواءاتهُ
أرضُ الخاصرة المليئة بالنجوم وأنصافها ببراكين الجمر الأبيض
بشلّالات الجموح والشهوة

بعد هذا نتفيّأ سرادقَ الحوض

حيث يستديرُ كوكب الجنس
يكتملُ التحوّل
يصير ثدياك الليل والنهار.

هكذا يقول السيد الجسد.

ـ ٤ ـ

ليبير، ليبيرا، فالّوس...

(الحب على البحر، البحر على متن الريح، والدُّنيا كلّها حرفٌ

في كتاب الجسد.

ـ ماذا رأيتِ؟

ـ فارساً يقول: «لا تريدين شيئاً إلا كان».

أخذتُ قمحاً بذرته وقلت له اطلع، فطلع. قلت انحصد،

فَحُصِدَ. قلت

انفركْ، فَفُرِكَ. قلت انطحن، فطحن. قلت انخبز،

فخُبِز

فلما رأيتُ أني لا أريد شيئاً إلا كان، خفت واستيقظت وكنتَ

على وسادتي.

وأنت ماذا رأيتَ؟

ـ ريحاً فيها شهب من النار وراءها أطفالٌ يقودونها

ـ ماذا أيضاً؟

ـ هضبةً تتحرّك وتنشقُّ عن غزالةٍ حبلى

ـ ماذا أيضاً؟

ـ كنا معاً في مركب وكنت حاملاً. وبينما نحن في عناقِنا الأليف انكسر المركب، فنجونا على خشبة من أخشابه، وَضعتِ عليها طفلك.

وصحت: عطشانة، فقلت: من أين ونحن في هذه الحالة؟ ثم رفعتُ بصري إلى السماء وإذا بشبحٍ في الهواء يمدّ لي
إبريقاً أخذته وسقيتكِ وشربتُ
ماءً أشهى من العسل وأطيب
ورأيته يغيبُ وهو يقول «تركتُ هَوايَ لِهواه
فأسكنني في الهواء.»)

طامحٌ جسدي كالأفق وأعضائي نخيل
تُثمرين فِيَّ
أُقطف تحت صدركِ، أيبسُ وأنتِ ريحاني والماء
كلّ ثمرةٍ جرحٌ، وطريقٌ إليكِ
أعبركِ وأنت سُكناي أسكنكِ وأنت أمواجي
جسدكِ بحرٌ وكلّ موجةٍ شراعٌ
جسدكِ ربيعٌ وكلّ ثنيّةٍ حمامةٌ تهدل باسمي

تحشرين إليه أعضائي
أتّجه في تِيهٍ وسكرات

أرتعبُ أتجاسَرُ
أستنجدُ بالغابات والبراري
بالطّينة الأولى

أتمزّق أنفطر نازلاً إلى أغواره
مليئاً بخلائقَ تشتعل تنطفىءُ تَشهق وتزفرُ،
تَخطفني هاويةٌ منه

أصعد
ألملمُ قلبي المتناثرَ في نهاياتي
أرفع بصري إليكِ تنادينني:
«أبطأتَ يا حبيبي أبطأت
جسدي خيمةٌ أنت حبالها وأوتادُها،
أبطأتَ يا حبيبي...»

طفلٌ تحت ثيابي يصرخُ الحبَّ الحبَّ
الشّجرُ مصابيحهُ والهواءُ برجه وأجراسه
راكضٌ حبُّه في قَوادم الرِّيح
طائِرٌ حيث لا حدَّ
في اتّجاهِ السّماءِ السّماءِ السّماءِ

تذكرين
بيتنا واقفٌ على جِدةٍ في نسيج الزيتون والتّين والنبع يرقد حوله
صغيراً كالبؤبؤ
تذكرين
الخشبُ يرفرف كالفراشات
والليل أول الأرض...

اللّيل...
عَمِّقي فُوهةَ الصّدرِ صِيري متاهةً واحضنيني
يكون لي تاريخٌ من الرّعد
سهولٌ يحرثها الرحيل
جزيرةٌ من محابر الجسد

أصِل أطرافَها بموتي وأسكن في أوائل الحروف
اللّيل...
بين الزّغب أنصب خيامي
أختلج
أهيّىء عدّة السفر
كلّ خلجة بلادٌ والطرق مضيئةٌ كأحشائي
ننحني نتوتّر نتقابلُ نتقاطعُ نَتحاذى
(أنا لِباسٌ لكِ وأنتِ لباسٌ لي)
تتخمَّر العضلة
وتأخذ البشرة لونَ البنفسج وطعَم البحر
حيثُ تُومىء اللجّة وتُبحر أطرافنا
نسمع أنينَ السرائر
نَلمحُ عروقَنا تتزيّا بالموت
نَتقوّسُ ونكبو
آهِ الماءُ المخلِّص الحبُّ
لماذا التّعبُ الراحةُ يا نسيجاً أكثرَ تلاصقاً من الماء يا حبّ؟

أعراسٌ أعراس
سِحرٌ آخر يُضيئنا لا الشّمس

أعراسٌ أعراس
تفتح وجهَنا على مدائن السّحر
تفتح تخومَنا على الجنس
والحلمُ أرضٌ تدور تحت أهدابنا
يَا لَلْحُبِّ الآخر في الحبّ
أيّها البعدُ الذي يبدأ بعد الأبعاد

كما خلقتكِ اشتهيتني
كما شئتك انسكبتِ فيّ
تدخلين في إيقاعي
تدهنين ثدييكِ بكلماتي وتغرقين في قَرارة الحب
حيث أرفع مدينتي وأحيا
نحيا، ومن أعماق الأشياء الحاقدة نعلن الحب

نحلم أنّ أهدابنا محابِر والنّهار كتابٌ مفتوح
أبعدَ من الحلم سرنا
أبعدَ من القلب أحببنا
قلنا لا تُسمِّنا لمن يُسمّي واستيقظنا

أنتِ بحيرةٌ
وأنا جذع لقَاحٍ وملآنٌ بالأرض
أرسو في شواطئك وخصركِ مرساتي

أيُّ مَدٍّ ينتظرنا؟
مغلَقٌ نَفَسي كالمحار وأنتِ لؤلؤي وصيّادي
وجهك حامِلٌ شِراعي وبين حبّنا والسّماء فضاءٌ لا يكفي
أكشفُ الوجهَ الثاني من النهار
ألمحُ الجهةَ الثانية من الليل
أصرخ بالبحر: أيها الجامحُ انكَسِرْ كالقَصبَة
وبالرعد: اسمعْ!
أسألُ:
هل الحبّ وحده مكانٌ لا يأتيه الموت؟
هل يقدر الفاني أن يتعلم الحب؟
وماذا أسمّيك يا موت؟

بيني وبين نفسي مسافة
يرصدُني فيها الحبُّ يرصدني الموت

والجسد عمادتي

من أعماق الأشياء الفانية أعلن الحب
لبير ليبيرا فالّوس...
ـ «كيف تزوّجتَني؟»
ـ «كنتُ أسير وحشياً ليس عندي ما أسكن اليه وأرتاح
فنمت نومةً واستيقظت
وإذا على وسادتي امرأة
تذكرت حواء والضلع الآدميّ وعرفت أنّك زوجتي.

يومَها حلمت أنَّ سحاباتٍ رُفعت لي
وناداني صوتٌ: اخترْ ما شئت
فاخترتُ سحابةً سوداء منها وسقيتكِ
وقلتُ
أيها الجسد انقبض وانبسطْ واظهر واختفِ
فانقبض وانبسطَ وظهرَ واختفى
ورأيت ثوبي يميل عني

والظلام يغشاني
وطلع مني العالم صارخاً كالحرَبة:
«اهبطْ عميقاً عميقاً في الظلمة»
وقعتُ في الظلّمة
رأيتُ الحجر ضوءاً والرّملَ مياهاً تجري
والتقيتُ بك ورأيتُ نفسي
قلتُ
سأبقى في الظّلمة ولن أخرج
لكن
جاءت الشمس وهرّبتني
ورأيت كلّ شيء يدخل في الشّمس...
وكيف تزوّجتِني؟»
«ـ كان جَسدي هبوباً إليكَ
يتلوّن بالأرض هبوباً إليك».



أمس،

أغلقت بابَ غرفتي مع الشجمة الأولى

أسدلتُ السّتارة الوحيدة ونمتُ مع رسائلها

وها وسادتي مبلّلة والكلمات حُبالى

احلم ـ

أغسل الأرض حتى تصير مرآةً

أضرب عليها سوراً من الغيم سياجاً من النار

وأبني قبّةً من الدمع أجبلها بيدي

«ـ ماذا أعددتَ لي هديّةً أخيرة؟

» ـ قميصيَ الذي لفّنا يوم تزوجنا.

وسأنزل معكِ

إلى القبر لأهوّن

عليكِ موت الحبّ،

أمزجكِ بمائي وأسقيك للموتِ

أعطيك ملكيَ: القبَر ومجّانيّة الموت.»

مَرّةً رأيتها بحراً يَعلو
عشقتُ الزّبدَ
وأقسمتُ أن تكون الأمواج جارتي
أنزّه في ملحها همومي
وتقرأ عليّ أصداءها

(ترى ما تحت الجلد. هل تريد، إذن، أن تكشف قارّة الأعماق؟ اترك لغيرك أن يكتشف قارَة الأعالي.)

الأعماق...

(كنا حشداً كبيراً، نساءً ورجالاً، نسيرُ في طريق النساء. فجأةً خرج علينا فهدٌ قطع الطريق. قلت لرجلٍ بجانبي:

ـ أليس هنا فارسٌ يرد عنا هذا الفهد؟

ـ لا أعرف لكن أعرف امرأةً تردّه.

ـ أين هي؟

سار وسرت معه إلى هودج قريب فنادى:

ـ نادا، انزلي وردّي عنا هذا الفهد.

قالت:
ـ أيطيب قلبكَ أن ينظر إليَّ وهو ذكر وأنا أنثى؟
قل له: نادا تحييك وتأمرك أن تفتح الطريق،
فحنى الفهد رأسه وغاب.)

الأعماق

لماذا تستعجلن موتي أيّتها الصديقات؟
اتركنني
أسمعُ في ذاكرتي أجراساً
أسمع في الأجراس أرضاً ثانية
تنقصني أرضٌ ثانية لأضيف إلى لغتي كلماتٍ جديدة
ينقصني
الموت
اتركنني
دعتني صدَفةٌ قرأت شِعرها عليّ،
قرأت أيضاً صفحاتٍ من كتابٍ تكتبه سمّته «غرفةَ الصدفة»،

كانت وهي تقرأ تكشف أسرارها:

رأيت فيلاً يخرج من قَرن الحلزون
رأيتُ جمالاً وأحصنةً في محاراتٍ بحجم الفراشة
وُلد أمام عينيّ كائنٌ نصفُه حجَرٌ ونصفه الآخر
حيوانٌ أشارت إليه هامسةً: هذا هو المرأة

ثم وشوشتني:
«ضع أذنيك بين أوراقي» -
سمعت إيقاعات الفصول
سمعتُ موسيقى بيتٍ يتهدّمُ، يكبر وهو يتهدّم وحين آذنت
برحيلي سمعتُ أصواتاً تردّد:

«سلامٌ للأصداف، للمداخل اللّولبية
سلامٌ لملكِ الجبال النائم هناك
سلامٌ لخطاطيفهِ المغَنغِنة...»

أغلقي
جسدي غرفةٌ مغلقَةْ
جسدي غابةٌ وسدودٌ وأقنيةٌ مغلَقهْ
أغلقي

جسدانا زوايا وأغطيةٌ ضيّقةْ
جسدانا رتاجٌ وسقّاطةٌ والممرٌّ إلينا
وَلَهُ في النّباتِ المعرّش في الفُسْحَةِ الضيّقةْ
بين أفخاذِنا والعيون
وَلَهُ يفرز الجنونْ
أغلقي
كلّ أصدافنا تظلُّ، وإن كُسِّرت، مغلقةْ
أغلقي
أحكمي عقدة الجفون
لون أهدابنا، حين نعرى
ونلبس أحلامَنا، ونُوسْوِسُ،
خَارِطةً مغلقةْ...

- ٦ -

شَمسُ العاشق تتدلّى ويحنيها النوم
يلزم أن يأخذَ الغيب عطلة الحصاد
أنْ يسيح وجهي في روح الدنيا
هل أمزّق سفر الخروج
أنحني فوق صورتي وأقرأ رملَها المزرَّد كالدرع؟
هل أهمس لثيابي:
تنقّلي على عُكّازٍ كمن يحلمُ واقفاً
تعلّقي إشارات وبيارق
في أحراشِ الأصابعِ والرّقبة حيثُ أسكر وأدوخ كدوّار الشمس؟
هل أقول لهذا الكرسي:
اتبعني وابْقَ وفيّاً للتعب الذي تشرّبته خلجةً خلجة؟
هل أُذكّر الموتَ بأوراقه التي نَسيها عندي في زيارته الأخيرة؟
بين أصدافي وبيني قوس ألوانٍ ومسافات
تستطيع المدن أن تعبر تحته وتستريح
لأصدافي أيضاً شوارعها وأشجارها، ولها غُرف نومٍ وأعياد
لو يتكلم السرطان لسألته أين يبيت الليلة
لو ينام البحر لفرشت له سريراً عندي . .

١ ـ صوت:

«نترك رأسينا خارج العهد
نمنح لكليهما عقاقيره وأشباحه
رأسكِ وسادةٌ، رأسي بركان يشتعل

ثم نكتب الوثيقة:
«المرأة بيت موقّتٌ للرجل البيت الموقت
«الرجل غد الرجل، المرأة مستقبل المرأة»
مع ذلك نبدأ الصفحة التالية
نتحاور بالأرجل
بحبر المسامّ وكلماتها
ونلهو في ممراتها المقنّعة

فجأةً
تجيء الحمم تومىء الصاعقة
نستيقظ ويجري كلانا وراء رأسه
في حنين السكَن والإقامة وأمواجِ الرّكض
وراء الوطن الآخر
الضّائع الدائم...»

٢ ـ حوار:

ـ بيني وبينك حجابٌ ولن تريني
أنّى لك المفاتحة والكشف؟
وقع في قلبكِ الموتُ فاستنيري بالموت
ومن أين تخرقين العادة؟
تخبطين، تخلطين...
أحوالي لم تستحكمْ فيكِ...
ـ أنا قرارك
طبختُك شمسي
لبستكَ خاتماً ختمتُ به على الدهر.

٣ ـ أغنية:
جَسَدُ الشّاعرِ
جَسَدُ الطّفلِ والغرابْ
جسدٌ في الكتاب
في هشيم السّتائر في الباب في الحجرَ الساهرِ

بين عينيَّ والكتابْ
جَسَدٌ في الزوايا
في السّراب الذي يتناسل تحت المرايا
جَسَدٌ يتناءى
حجراً طائِراً يتلقّفُ أو يضربُ السَّماء
جَسَدٌ يتفتّحُ في الحلم، يُغلَقُ في اللّيل، يَمْتدّ بين الحروفِ
جسَدٌ كالحروف
جسَدٌ يتقهقَر في أوّل الصّفوفِ
جَسَدٌ يتراءى
كالطّريق المعلّق، يفتح أوراقَهُ ويستنطِقُ الفَضاءَ
حيثُ لا يعرف الصّدى أدوارَهْ
حيث لا شيء فوق مسرحيَ المقبل غيرُ الصّدى وغيرُ السّتاره...

٤ ـ أغنية:

أدعوكِ يا نهايةَ اللّيلِ انْتشي وطولي
صِيري على فراشي
ساحرةً،
أدعوكِ أن تقولي

ماذا يقول الحبّ للعاشق،
في نهايةِ الفصولِ؟

٥ ـ أغنية:
لم يزَلْ شهريارْ
في السّرير المسالمِ، في الغُرفةِ الوديعَةْ
في مرايا النّهارْ
ساهِراً يحرسُ الفجيعهْ
سرقَتْ وجهَهُ الكلماتُ الخفيفهْ
علّمتهُ السُّباتْ
في سوادِ البحيرة في زرقةِ الحَص
بين أنقاضِه الأليفهْ.

لم يزل شَهْرَيارْ
حاملاً سيفه للحصادْ
حاضِناً جرّةَ الرّياح وقارورةَ الرّمادْ

نَسِيتْ شهرزاد
أن تُضِيءَ الدّروبَ الخَفيّةْ
في مدار العُروقْ
نسيت أن تُضِيءَ الشّقوقْ
بين وجهِ الضحيّه
وخُطى شَهْريارْ.

(١٩٦٢)

# أقاليم النهار والليل

تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً.

قرآن كريم

آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

الإمام علي

وكنت لا أرى في النوم شيئاً إلا رأيته في اليقظة.

أبو القاسم الجنيد


www.alkottob.com

# ١ ـ فصل الحجر

ـ ١ ـ

(ـ «سلامٌ. ألكَ رفيقٌ يؤنسك؟

ـ «نعم.

ـ «أين هو؟

ـ «أمامي وخلفي، عن يميني وشمالي.

ـ «ومن أين تأكل؟

ـ «حين أحتاج إلى الطّعام، أسمع فوق رأسي صلصلةً. أنظر فأرى كأساً تتدلّى

وشخصاً في الهواء يناولني رغيفاً.

ـ «ومن يزورك ويخدمك؟

ـ «الدنيا. تجيء إليَّ في شكل امرأةٍ ضيِّقةِ الخاصرة.

ـ «هل ترافقني؟

ـ «إذا رأيتَني مرّةً ثانيةً، لا تكلّمني.»)

- ٢ -

تعبرُ نارٌ زرقاء في الجمجمة
تعبر في أوائل الهدْب
حيث تنهض أرضي وتومىء وتنحني -
أرضي!
صوتٌ طالِعٌ من هنالك
عطرٌ يأتي
جبالاً تَسْتيقظُ كأعناق الأطفال
سُعالاً يتهدّج في حناجر الماء،
وفي طبقات الورد والزُّرقةِ
أشخاصٌ يأتون يروحون يكتسونَ بالبراعم
ويمسحون دموعهم بالأوراق.

أرضي . . .
امرأةٌ بخضرة اللّهب
يَتصاعد حنينُها وسائد وسائدَ
تتعرّى المسافة
ويمتلىء وجه اللّيل بشامات الرُّوح.
هكذا أزدهي صائحاً: مَن يعرف مثليَ الأسرار وقد نَفخت بين

شفتيّ الأرض؟
أتربّع في الهواء
أتدثّر بالدّنيا
أتعب، أضرب خيمتي بين عينيّ،
وحين أعودُ
أغلق بيتَ نفسي وأشتغلُ بحالي.
أرضي!
عالمةً كالجسد، مليئةً كالجسد
كلّ عضَلةٍ فاتحة،
كلّ فاتحةٍ عتبة:
اقرعْ أيّها الزّمن اقرعْ

ثمةَ سلاسل
مساميرُ
قُضبانٌ
بَشَرٌ بأقدامٍ أربع تصهل وعلى اللّجام أحلامٌ وعطور
التّقديسُ التّصديقُ العجزُ
السّكوتُ الإمساكُ الكفُّ التّسليم التّسليم
ثمة أصواتٌ تتعالى
البدعة، البدعة! المحدث، المحدث!

نُبطِل سنّةً قديمةً
نردّ للإنسان اسمَه
ونبدأ
اقرعْ أيّها الزّمنُ اقرعْ
يلزم صبرُ الحجرَ
تلزم شجاعَة القبر.

أنهضُ نحوكِ يا أبعادي
أرضاً
تتطايَرُ في هواء التّاريخِ
تتقصّفُ غصناً غصناً.

انطفأتْ نيران خيامها ومعسكراتها
انطفأت شهواتها
أسمع فوق رأسها ناقوساً من العناكب
ألمح على قبرها غطاءً من الكلماتِ الشّائبة، ـ
نجمةً تتقمّصُ نعجةً لتعرف السّماء وتشهد،
غيمةً تذوب،
تتفيّأ ظلّ صخرةٍ وتنتظر التّرابَ عشيقَها الشّيخ،
ريحاً مسحورةً بخرومِ الإبرَ...

أرضاً
تتقصّفُ غصناً غصناً، ـ
ثديُ النّملةِ يفرز حليبَهُ ويغسل الاسكندر
الفَرسُ جهاتٌ أربع ورغيفٌ واحد
والطّريقُ كالبيضة لا بداية له.

أنهض نحوكِ يا أبعادي
أرضاً ـ
جسراً كالطّفل يرضع أعمدته

وَرَقاً تكلّس فوقه الكلام
اللّسانُ ينبتُ في الأقدام طويلاً حتى السُّرّة
واللّغة رمادٌ يتكوّم قربَ العجيزة؛
أرضاً
تتقصّف غصناً غصناً ـ
الجدارُ يصيرُ دمعاً والدّمع ضَحِكاً
النّهار يَكْتَهِلُ حنيناً إلى الموت
كل شيءٍ يسافر تحت راية البراعم

براعم النشور والقبر
القشّ والمطر
الزّرع والحصاد
كلّ شيءٍ زهرٌ أسود،
الحوانيتُ غيومٌ حُبلى بالبرق
الشّوارع قامات يكسوها الحلم
الحلمُ طائرٌ مليء المخالب يُعشّشُ في سقف الأيّام
رمحٌ يخرق الفارسَ والدّرع
يجلسُ فوق الغنيمة ويشربُ النّجيعَ كالخمر
نجيعَ اللؤلؤ والكتاتيبِ،
الحروفِ المقدّسة وأسرار الموائد والكراسي...

أرضاً، أرضاً، أرضاً
ثمةَ رأسٌ كالصّندوق يلبس حذاء النبوّة
سُرّةٌ ترتسم على جبين المقاهي
عرسٌ يدور تحت سراويل الموت
حَجرٌ يتثاءب،
ثمّةَ وارثونَ خِفافٌ كالرّيش يحملون الطّميَ والترسّبات
ثمّةَ نارٌ أجبنُ من الماء.

أنهضُ نحوكِ يا أبعادي
أرضاً
تتطاول خيمةً خيمةً:
ينتظرني خوانُ الفتوى -
باقاتُ الكتب
فناجين الكلام
عطرٌ يتسلسلُ
من أردان امرأةٍ يبست في الدّنيا ونوّر نَهْداها في حدائق الآخرة،
ينتظرُ مَقْعدٌ بحجم القفص -
أشهد مسرح النّهايات،
نهايةَ الشمس والهواء
الوثب والعلوّ برحمة الشّهيق والزّفير
نهايةَ الثّقوب التي تربط النّفسَ بخيط الأشياء الحُبلى بالأشياء
ونهايةَ الجنين.
وتحت الخِوان يجثُم النَّهَمُ
ويتكوّمُ الفضاء جُثّةً تسكر حولها مناقيرُ الجوع
والعودةِ إلى أوّلِ

الدائرةِ،

وراء الاجترار وخطوطه عرضاً وطولاً وإلى أسفل سافلين. . .

أنهض نحوكِ يا أبعادي
أرضاً
موجاً قائماً في الهواء
فَرَساً من المسك تنبتُ حوله أشجار الدِّفلى
أنهضُ نحوكِ ـ
الجبالُ عروقي وبين لحمي وجلدي دبيبُ النّمل: أرتعش،
يسقط من كلّ رعشة كتاب.

(هنا،

طلع أمامي ثورٌ بثلاثين قرناً وعشرين قائمة، وبين أذنيه ياقوتة خضراء.

ورأيتُ دابّةً غريبةً تمشي. تناولتُ حجراً، فأسرعتْ هاربةً إلى النّهر، وسبحتْ على ضفدعةٍ إلى الجانب الآخر. تبعتها. نزلتْ عن ظهر الضّفدعة وسارت. رأت رجلاً نائماً يهمُّ ثعبانٌ كبيرٌ بلدغه. عضّته الدّابّة. قتلته وغابت. فازددتُ تعجُّباً، ثم

أيقظتُ الرّجل فقام، ولما رأى الثّعبان بدأ يهربُ. فقلت: لا تخف، وقصصتُ عليه القصّة).

أنهضُ نحوكِ يا أبعادي
أتزوّدُ بعصايَ ـ
أشتهي الفاكهة.
أغرسها أشجاراً تورق وتثمر للحال،
اظمأ، تصيرُ إبريقاً
أدخلُ مغارة اللّيل
يصير طرفها الأسفل ناراً والأعلى قمراً،
وقبيلَ النّوم، تطيّبني وتحادثني،
وحين تعرف أنني غاضِبٌ تُصبح شيئاً آخر
وتحرقُ ما تراه...

أنهض نحوكِ يا أبعادي
أصعدُ في الحَجر والدّمع
أصرخ الهواءَ الهواءَ، وأشفق على غيريَ من صراخي،
أصعدُ، أتعبُ، أسقطُ في خدَرٍ بلا لونٍ في عالمٍ لا يليقُ بي.

أرى رجلاً صالحاً يركب على جرادةٍ ويلبس خُفّاً أحمر
ويقول: الدّنيا سِحرٌ سِحرٌ...

- («أين أشاهدُ صديقَنا الخضر؟»)
- («عند الصّخرة في كُوّةٍ على البحر، وترى أَثَر جناحيه في الطّين»).

ورأيتُ الخضر يُدخل جناحيه تحت المدينة ويقتلعها...
المدينة!

(السّراطينُ تخرج إليها كاللّيل، تدخل البيوتَ بَغتةً وتقفز بين الشّفاه)

أصعد نحوكِ يا أبعادي وأدعو ما حولي ليشاركني الولادة:
أصيرُ شيئاً من المكان - جدولاً، أو سمندلاً، أو خزامى، أو غير هذا من خلائق الربّ سبحانه
تُولد آنذاك الشّفافية

أدخلُ آنذاك في النسيج الكونيّ،
أصعد أصعد أصعد
تهتُ
وقعتُ في بَرّيةٍ:
(هذه عجوزٌ جميلة تركب على أسدٍ حوله سباع كثيرة. طاش عقلي.
قدّمت لي كوزاً أحمر ما رأيتُ أشهى من مائه.
ـ «مَن أنتِ ومِن أين؟»
ـ «قيل لي أن أسقيكَ وأدلّك على الطّريق.»
ـ «مَن قال لكِ؟»

ولم تجبني العجوز الجميلة وغابت عن عيني.
وصاح طائرٌ فسمعت صوتَها يسألني:
ـ «أتعرف ما يقول؟»
ـ «...»
ـ «يقولُ: النّهارُ في ضيقٍ وبين جناحيّ يستطيع أن يُقيمَ ويتَبَخْبَح».
وحين ناداني نسرٌ سمعتها تضحك وهي توشوشني:
«يقول : في البعد عن الناس أنس».

وصاحت الشمس وهي تطلع فقالت:

ـ «أتعرف ما تقول؟»

ـ «. . .»

ـ «تقول: أنا قصدير الأرض، يُجلى بي صدأ العالم، وبي تُلحم أجزاؤه.»

أصعد أصعد أصعد نحوكِ يا أبعادي
وحين تظهرُ غيمةٌ أقول جاءت مرساتي.

- ٣ -

يلزمني الخروجُ من أسمائي -
أسمائي غرفة مغلقةٌ

يُجَبُّ غائب

علي أسبر علي أحمد سعيد علي سعيد على أحمد أسبر علي
أحمد
سعيد أسبر
يصارع يتكسّر كالبلّور
وأدونيس يموت
والهواء شقائقُ وأعراسٌ في جنازته

أورفيوس!
الرّعاة يبحثون عن ذبيحة. قل لرأسكَ أن يطفوَ مركبَ
أغنياتٍ على النّهر، وامنحهم نعمة أن يروك. الوباءُ جالِسٌ مقيم
لا يطرده إلاّ صوتكَ - إلاّ دمك، أورفيوس! أورفيوس...

- اهدأ أيّها البقر الوحشيّ اهدأ
لم يعد وراء جلده غير الابَرْ
والحبّ هذه اللّيلة شيخٌ في العشرين...

أهدأُ أيّها البقر المسكون بالزلازل
الجدران تتلوّى كالخيزران
والرّياح تتوافَدُ أبراجاً أبراجاً...
اهدأْ يا بقراً محشوّاً باللّيل
الضوء يفتح الشّبابيك جارياً كالمهر
والشّارع مِياهٌ وأطفال...

يلزمني الخروج من أسمائي، ـ
ـ هل يخرج من جلده ويمضي؟
يشجّعني ويهتِفُ بي هاتفٌ:
حرّكْ شفتيكَ بكلامٍ لا يفهمه غيرُك فيصغي
إليك الورقُ وجحيمُ الأغصان
تسمع من يجيبُ موشوشاً: تلزمك صحبةٌ مع غير العالم ـ
تطالع بجوارحك الغيبَ، وتحيا مطبوعاً على البدعة،
وسوف أعتصمُ بجوعي،
لن أشبع
لن آكل إلاّ موتي.

لماذا لا يأنس إليّ غير الهواء والحجر؟
لماذا لا تُسَرّ بي غير الأشياء؟
هل أنا وحش الحقيقة في هذه الخرائب حولي؟
ومتى ستُفتحُ عليّ تهاويلُ الدّنيا؟

ـ ٤ ـ

شَبَحٌ يتغلغلُ بين سلالمِ الوقت
شَبَحٌ يَسيرُ في تجاويفَ ليّنة
يحملُ أفكاراً تفرّخ في رؤوس النّخيل ورمل الشّوارع
يحمل قلوباً أحَنَّ من العصافير؛
ليدخلْ هذا الضّجيجُ الطّويلُ القدمين الآتي باسم آتٍ لا أنتظره،
لو استيقظ مثليَ الطّريق الذي سيعبرهُ لتَنَاثَر أثيراً من نوعٍ آخر،
والتفّ وتقلّص وارتدّت نهاياته ارتدادَ الموجة، وهدأت
عند قدميّ،
ليدخلْ،
لو كنتُ شجرةً لرأيتُ أهدابي موصولةً بالأفق
والأفقَ موصولاً بغيره
وغيرَه موصولاً بالنقطة التي تجذبني وحولها أترنّح وأدور،

لو كنتُ ثمرةً لرأيتَني
أسافرُ بالورق وغير الورق
بالبراعم والغصون
بالهواء وشعاع الشمس
ثم أتراجع
أتلملمُ
أتجمّع
وأسقطُ في نفسي ناضجاً وعموديّاً،
لو بقيتُ حلماً
لو أبقى
لو البقاء حلمٌ
والحلمُ أرضٌ مدوّرة كالبؤبؤ،

لِيدخلْ، ـ
كيف أُمزَجُ كالهواء وأُعجَن غير عجنيَ الأوّل؟
لِيدخلْ، ـ
مَن لي بما يذكّر ويشهّي:
ذهب الاستطرافُ
ماتت الشّهوة
وشيّخَ كلّ شيء.

لِيدخلْ، ـ
أعنده الرّياحُ التي تكبّ الأفق؟
لِيدخلْ،

أفتحُ وأطلّ
أسمعُ أنّ حولي أناساً يتناسلون، يموتون
يحاربون، يحلمون

ولا أراهم،
مع ذلك،
أعرف البشر كلّهم
أذكر
قابلتهم في واحةٍ بين أذنيَّ ـ قربَ سَريرتي،
لكن لا تزاورَ بيننا،
الأشياء وحدها أراها وتراني.
أسمعُ أصواتاً ـ
صوتاً يقولُ لي:
«تُفارق نفسكَ وتمضي

سَفينةَ نفسك في نفسك
بيتاً كالسَّحاب
ولا دعامة...»

حجراً يصيحُ بي:
«أنتَ غريبٌ أنا سريرك.»

أجنحةٌ عابرةٌ تناديني:
«النَّجومُ فوقكَ زبدٌ ثابت
والغيوم قبورٌ تتحرّك...»

# ٣ ـ فصل المواقف

ـ ١ ـ

«. . . وأوقفني في الرحمانية فقال: لا يستحق الرضا غيري، فلا ترض أنت فان رضيت محقتك».

النِّفَّري

(موقف العظمة)

ـ ٢ ـ

«وقال لي: النعيم كله لا يعرفني والعذاب كله لا يعرفني، وقال لي: معناك أقوى من السماء والأرض».

النِّفَّري

(موقف المحضر والحرف)

- ١ -

- الزّمنُ فخّارٌ والسماء طحلبٌ. ماذا تفعل؟
- أصيرُ الرّعدَ والماء والشيء الحيّ.
- وحين تفرغ المسافاتُ حتى من الظلّ؟
- أملؤها بعينٍ تلبس الجهات الأربع،
أملؤها أشباحاً تخرج من الوجه والخاصرة
وترشحُ بالحلم وذاكرة الشّجر.
- وحين لا تواتيكَ الدّنيا؟
- ألهو بعينيّ ليزدوجَ فيهما العالم
أرى السّماء اثنتين
الأرض اثنتين

إلاّ أنا -
أبقى واحداً.
- وحين لا يبقى غير الحجر صديقاً؟
- أهتفُ: يا صَدَفة! إنني جزؤكِ الرّخْو!
وأُديرُ قرنيَّ للشّمس.

ـ ٢ ـ

جَسَدي يحوّم فوقي خفيفاً كالرّوح
حجرٌ يتدحرج ورائي
نبعٌ ينتظرني؛ ـ
وداعاً أيها الجوهر الثقيلُ يا رخامَنا البشريّ
وَلْيأتِ العابِرُ الخفيفُ
النّهرُ ووجهُه
الرّيحُ وأطفالها
وَلْتأتِ الأجنحةُ المليئةُ بالغيم.

أغنية:
إنّه جمرةُ الزّمنِ اليابسِ:
لِيَغِبْ وَلْيَضِعْ
في نسيج خلاياه في الظنّ في الهاجسِ...

أغنية:

ـ جاء في آخر اللّيلِ في موسم الكهولهْ
لم ينم في سرير الأساطير،

لم يعرفِ الطّفولَة.

تنهضُ في جَسدي أرضٌ
تهمسُ لأيّامي أن تكون شبابيكها،
تعلّم خطواتي أن تصيرَ باسمها رسائلَ وعصافير،
هكذا أعبرُ كالزّجاج، شفّافاً ولا ظلّ لي،
في طريقٍ من الأجنحة.
أتحرّر، أسجن أعضائي داخلَ أعضائي
أصير كبريقِ اللؤلؤة:
أضربُ العيونَ وأعود إلى بؤرتي.

من يعطيني ورقةً أحمّلها أكداساً من البخور والصّندل أنقّطها
كالعروس وأجلوها
أقرأ عليها سورة مريم
أهزّ فوقها جذوعي من الشّوق والحلم
وأرسلها إلى أحبابي
مليئةً كالتفّاحة

خفيفةً وخضراء كمهرة الخضرا!
وأنتم،
يا من تكرهون التلفّظ باسمي
تُلصقونني بعيونكم حين تقرأون أخبار الوفيات
وتصرخون:
قَسماً، يسيرُ وفي كلّ جيبةٍ من جيوبه مدفعٌ
وامرأة عارية

أنتم أيّها الملائكةُ
الأطهارُ
المنقذون
القوّاد
الحكماء... الخ،
ألتمسُ منكم في هذه اللّحظة معجزةً واحدة
أن تعرفوا كيف تقولون: وداعاً، واو دال ألف عين ألف
معجزةً واحدة: وداعاً
بيننا بعدُ الرّوح
بيننا الأعماقُ والسّفَرُ في فضاء الأعماق.
برقية من بلاد نسيت اسمها:

البلادُ صغيرةً كعلبة الكبريت.

والشَّمسُ لا تُشرق هنا ـ هل
تشرق عندكم، حقّاً؟

مفكرة الشهر الماضي:

السّهَر ـ والقهوة أحياناً. نقرٌ
وهميّ على الباب: نقرٌ لا يهدأ.
جمعية جديدة اسمُها جمعية
الحيوانات الميّتة والحيّة لِلرّفق
بالإنسان. لعب الورق مع
أرواد. الكلامُ أحياناً.

يومية بدون تاريخ:

حوار قديم:
الطفولة: العالَمُ رجلٌ يُسرج
حصانَه في زيارةٍ إليك.
سيدعوكَ إلى صداقته.
أنا: صداقتِه؟ لِيمتْ أوّلاً
وليأتِ. بعد هذا يأتي الكفن.
بعده القبر. ثم تأتي الصّداقة.

نمتُ مرّةً ولم أكن متخماً
فرأيتُ صديقاً يدخل ويخرج بين أصابع قدميّ

آخرَ يحلّ سيور حذائي ويلتفّ بها
ورأيتُ صديقاً يذبحني.
أسماء إسماء
أسماءٍ تثغو، تصيء، تلدغ وتصلّي
تجرح الجنين المهاجرَ بين البرعم والثّمرة وتستضيء بالسّوس،
أسماء الخنق والحرق واحتضار الماء والأجنحة
أسماء اللّكاعَة
اللُّهلَه
اللُّكاثِ
اللّهْوَقَةِ
اللّقْوةِ
لُقّيا اللُّفاءِ واللّقْسِ ولهاثِ الموت
وداعاً، دا. دا دا
وداعاً.

أغنية :

من ثلاثينَ عاماً أضيعُ وأكتشفُ الآخرينْ
كان لي سفُنٌ ومرايا
في مغاورَ ، حتّى الصّغارْ
يجهلونَ مفاتيحَها،
كان لي ساحِرانْ
يخطفان الهدايا
من كنوزِ البلادِ البعيدةِ، من حارسِ البحارْ؛
وكأنَّ الفضاءَ النُّحيلْ
كان لي فَرساً لِلرّهان
فَرَساً تتطاوَلُ تيّاهَةً كالنّخيلْ
تَسبقُ حتّى الفراشات، حتّى ضَبابَ المكانْ . .

مِن ثلاثين عاماً
أضيعُ، وأكتشفُ الآخرينْ
حيث أعطيتُ وجهيَ لِلغيم، أعطيتُه للحقولِ الحزينهْ
حيث كنّا ـ أنا والصبّاحْ
عاشقَيْن ربطْنا مسافاتِنا بثياب المدينهْ
وملأنا حقائبَنا بالرّياحْ

وجعلنا الرِّياحْ
لغةً وقصائدَ للآخرين.

من ثلاثين عاماً أضيعُ، وأكتشفُ الآخرين:
أعرفُ أنَّ البكاءْ
رئةٌ للحزينْ
أعرف أنَّ العصافيرَ شبّابَةٌ، والسَّماءْ
شَفَةٌ لا تُحاورُ غيرَ الجنينْ
أعرفُ أنَّ الطَّريقْ
لغةٌ في شعوريَ، لا في المكانْ
لغةٌ في العروقِ وفي نَبْضِها، لغةٌ في السَّريرهْ
حيث تأتي المسافاتُ من أوَّل الرّوحِ موصولةً بالبريقْ
ببريقِ الفتوحاتِ والكَشْفِ والعابرينْ
في التّخوم الأخيره.
أعرفُ أنَّ الوجوه مَرايا، وأنَّ الصَّديقْ
حَجَرٌ؛
كان وجهُ الحجَرْ
حُلُماً، كان وجهاً يُضيءُ
ويُضيء على شفتيهِ الكلامْ

كان لي دفتراً أتوسّدُ أوراقَهُ وأنامُ.
أعرفُ أنّ الصّديقَ
فارسٌ في الضّفافِ القريبةِ لكنّه لا يجيءُ.

وداعاً يا أنقاضي!
دميةٌ تدخل بغتةً من النافذة، تحمل الجدران الأربعة وتمضي،
طفلٌ
يعلّق أهدابه على الشجر كالمناديل
وفي الحجر يستريح،
بيتٌ يحضن دفتراً ويركض حافياً إلى المدرسة،
كتابٌ يضعُ نظّارةً
يربّي الأرانب ويدرّب العصافير على المهن الحرّة
وداعاً يا أنقاضي!

أغنية:
ذاكرٌ، ذاكِرٌ شبابي:
جُزرٌ في يديَّ وفي قامتي
جُزرٌ في ثيابي

كنتُ بابَ الصّدى والأغاني
في بلاد الكهوف العريقَةْ
كانت الأرضُ لي زوجةً وصديقَةْ؛
ذاكرٌ في الدّروب الضّريرةْ
شهقةَ اليائسينَ ينامونَ في الفجوة الصّغيره
بين أحلامهم والرّصيفْ،
ذاكِرٌ كيف كان الرّغيفُ
مُصحَفاً، وسماءً كبيره.

أنقاضي!
امرأةٌ تطلعُ من أحشاء النّيلوفر
تتبرّكُ بي
ثم تصيرُ وردةً في عُروة الشّيطان
وشجرةً على ضفّة الجحيم،
حالِمٌ يقرأ كتاب الشّوارع راسماً وجهه بنار الإسفلت
شاعرٌ يفضح المدينة ويرقد في سراويلها
مدنٌ تنحني، أشجارٌ تتلاقى واسْميَ المكانُ والوعد
سلاماً يا أنقاضي!

أغنية:

كتبي يحرقُها الطّاغي هناكْ
هيَ ذرّاتٌ من الغيم حزينَهْ
فوق أشلاء المدينهْ
وغداً، أو بعده تنهمرُ ـ
أيّها الحجّاج لم تحرق سواكْ
إنّ شعري لغة الأرض هناكْ
وأنا الرّيحُ هنا والمطرُ؛ ـ

لكن الأرض سائبةٌ،
والرّعبُ آتٍ في الثّوب والثّور في البثور
في الماعز والحيوان التّوأمِ المسمّى رجلاً وامرأة
آتٍ في الحصاة والصبّر والصّباح
في الحرب وغير الحرب
في النّهد والنّوم
في اللّبن واللّيل
في الحبر والورق في الحروفِ آتٍ آتٍ

في الأمّة الأمّة الجهاد الجنّ والجرائيم آتٍ آتٍ
ميشا ماشا ميلانو سانشو راجا سان جيرمان دوبري ، باري ستّيا ، !

أغنية :
أتهجّاكِ يا لوحةَ الرّعبِ،
أقرأ صحراءكِ الطّويلةْ
وغدي مائلٌ، وعلى وجنتيَّ
بُقَعٌ من يَديَّ
أتهجّاكِ، أوقظ النّارَ في وجهكِ،
أستصرخ الحروفَ البخيله
أحضنُ الفهدَ والغرابْ
أحضنُ الميّتينْ
ألذين أفاقوا من العُشب كي يُبعثوا في التّرابْ
نملةً أو كتابْ
أقبلُ أن أغسلَ الميّتينْ
بغدي أو بأمسي
لأكونَ جديراً بنفسي :
أتخطّى ،
وأستَحْدِثُ الآخرينْ .

- ٣ -

في الآبار المحفورة بالصّوت
في الصّوتِ
في العدد بين الرّقم والرّقم
في النّبض بين الحاسّةِ وأختها
بين الوريدِ والعنق
أسافر
في قطار النّوم واليقظة،
في اختلاجه الذّاهب نحو الموت آتياً من الطّفولة،
في الحركة التي تتسارعُ بين عجلاته وترتخي وتتشنّجُ وتهبط وتعلو، حركة الجلد والمتاريس والحدود في مملكة الجلد، حركة الرّشْقِ والدّفع والجذب، حركة الهدم والرّخم والتفجّر، حركة الفُقاعة والموت قبيل الموت بين الرّعد والإشارة بين الكلمة والحنجرة أسافر خارجَ الصِّيَغِ ـ الشّكل ونقيضهِ الضّفافِ المزحومة بالأصداف

خارجَ الصّدَفة
أسافر
أصعد، أتفجّر
ألبس الهديرَ والتهدّج

أتموّج بالرّعب
أتحرّر من التّوبة، العِظة، العودة
أتحرّر من الصّبر
من دمي والتّاريخ الرّاقد فيه
أتجزّأ وأعرى وأوسوس نفسيَ ضدّ نفسي
أضعُ نفسي خارج كل شيءٍ وأقول للجنون الرّشيق أن

يسرقَ أهدابي كنسيمٍ غربيّ

أنقطعُ، أنفصل، أنفصم
أختبىء تحتَ شفتيّ

بعيداً بعيداً بعيداً

في الضوء في الظّلامْ
في الصّمت في الذّهولْ
في لغةٍ تغيّر الكلامْ
في مطر يغيّر الفصول
في الظّمأ الجامح والسّير بلا وصولْ

بعيداً بعيداً بعيداً

عن الثقيل والعائق

عمّا يحني ويربط ويحاصر
عمّا يوفّق ويصالح ويعلّم
عمّا يقنع ويخضعُ ويرضى
بعيداً بعيداً
حيث أصيرُ البرقَ والجذرَ العائمَ الجَذْرَ
أسافر

هنا
حيث الجدارُ والجدارُ الكرسيّ والجدار التّبغُ والجدارُ
في حوارٍ دائم
حيث السّاعة خرطومٌ والجريدة نَوْرَسٌ أو يمامة.
حيث الجسَدُ بساطٌ
والخبزُ ساحرٌ بآلاف الأقنعة
والجسَدُ الحضورُ والمسرح

أسافر أسافر
هنا ـ في العشب اليابس بين العِرْق والعرق
في الكرسيّ المغطّى باللّيل

في كتبي هذه الشعوب المريضة التي تتعانَقُ وتنام حولي
أسافر
في الفراغ وهندسته - حيث أكتب وأقرأ: «هنا يرقد إقليدس...»
حيث قُبر المتنبّي في صوته
وعاش المعرّي تحت عينيه
حيث عُلّق الحلّاج على خشبةٍ في خريطة الرّوح
حيث الرّازي وجابر والسّهروردي وأصدقاؤهم يتكفنّون
بأصواتهم
ويفرّعونَها أكفاناً ومقابر
هنا حيث الفراغُ وهندستهُ -
ظلّ الضوءِ والظلُّ الصّوتُ الشّرارُ

ريمان لوباتشوفسكي

سِلاه سِلاه سِلاه!

أغنية:
- رأسُ مهيارَ يعلو، كأنّ الشَّجَرْ
سُفُنٌ وضِفافٌ
وكأنّ المطَرْ
لغةٌ تتساقَطُ منهُ، كأنّ الكلامْ

أرضُه والمطافُ
رأسُ مهيار يرسبُ، يطفو، يطوفُ
ثقبت وجهَهُ الحروفُ
رأسُ مهيار يكبو ويعشق سِحْرَ الأقاصي
رأسُ مهيار يدمى، يجفّ، وينأى... كأنّ الحُطامْ
رايَةٌ للخلاص.

اكتشفتُ أنني مُقعد وليس لي قَدمان
والأرضُ أمامي أضيقُ من القدَم
سأغطّيها بالمزابل كما في سِفْرِ الأمثال المخبوء في الجبال بين أثداء العجائز،
لعلّها تكبرُ تكبرُ تكبر
وأنا سأصوّبُ إلى نفسي سهامَ الفضاء وأربط أطرافي بشلّالٍ
لا جذرَ له
أو بتيّارٍ يعبرُ كالفاجعة
وأهوي،
لابساً قامة البحر والشواطىء فاتِناً كشلّال،

نحو الخفيّ المنكر ـ أخي وسيّدي.

أترك هذا الصوت:
كان يَسْتعجل النّجومَ، يُلاقيها
إلى مفرق الدّروبِ الأمينهْ
مثقلاً بالحروف والحِبْر، مكتوباً
على دفترِ السّماء الحزينه.

أترك هذه الحاشية:
قادِرٌ أن أصيّر وجهي بحيرةً للبجع وأجعل أهدابي غاباتٍ، وأصابعي ربيعاً وأعراساً. قادِرٌ أن أبعثَ أليعازَر في كلّ خطوةٍ أخطوها،
لكنّ الفرحَ غائبٌ ولم تحن ساعةُ الظّهور.

أيضاً، أترك هذا الحلم:
عرس. فاوست يتزوّج الضفّة الشّرقيّة من المتوسّط. الضفّة امرأة تتزّين بالقارّات، بالصنوبر والكرز. الصّخور دافئةٌ كالنّساء، وديعةٌ كالأعشاش، والشّواطىء حُبلى بشواطىءَ لم تجيء

بعد. . .
وجه السّماء الآخر،
فوهة عصرٍ يقترب. . .

ـ ٤ ـ

أرضٌ تعرضُ نفسَها عليّ؛
تنهضُ في جسدي، تومىء وتنحني ـ
اجعلُها مسطّحةً ودونَ أطرافٍ كي لا يعودَ المسافر
ولا يهتدي

أُسْقِط فيها، بين لحظةٍ ولحظةٍ،
كوكباً خفيفاً كزفير بلبلٍ يموت
ثم أسمح للأحلامِ ـ غريبةً ومن كل نوعٍ ـ أن تسقط فيه
ترصدُ البحر العائد من هجرته
تسمع الفضاء يقول للبجع: اقْبلْني ضيفاً تحت ريشك،
ليلةً واحدة

وبين غفوةٍ وغفوة
أهمس كي تغافلَ التّاريخ،
تنسلَّ إلى مغاورهِ وكهوفه وأقبيته التي يحرسها جلّادونَ بعينٍ

واحدة ورؤوسٍ عديدة، والتي تزخر بالسّلاسل وأخواتها من أدواتِ التّعذيب والقَتل خنقاً أو حرقاً أو مَزْقاً، أو بوسائل غير هذه يجهلها اللّسان الفصيح، ثمَّ أعطيها أن تغافلَ الحرّاس أيضاً...

(هيّا، عَجلي، ضعي اللّغم... أشْعِلي الفتيل)

لكن...

آه أيها الفتيلُ المبلّل،

والزّمنُ رَطْبٌ

ولا جمرَ في الهواء!

أرضٌ تعرض نفسَها عليّ

تُوحي بالبحث عن تُرّهاتٍ تغذّي مجاعة الحيوان

مثلاً ـ عن برجٍ بابليٍ من الجِمال المجنّحة

أو منارةٍ من أنقاض الرّاهبات

أو هَرمٍ من البكاءِ والملاريا

وتمنحُ لكلّ شيءٍ ـ حتى للقبر والشّاهدة والنّعش، قناعاً من وجوه الأطفال.

أرضٌ تعرض نفسها عليّ

تهتفُ أن أرشّ سحري ماءً أزرقَ على غيرها من الأرض وأتركه في سُباتٍ إلى آخر الدّهر ـ آمين.

ـ والمدنيّة؟

أترك لها، استثناءً، تيوسَها، وطلائعَها ورصّادَها من جواسيسَ وزعماء وغيرهم. . .

ـ وهذه الأرض؟

أعجنها كالكرة،

أقول لأعصابي أن تصيرَ سهاماً تخترقها

ثم أنقش عليها أسماء الشّهور والسّلاطين وأنواع النّبات والنّساء،

وأرفعها على بساطٍ سحرّي، هديّةً إلى الأمير من عاملِه على مغارة الكنوز. . .

أرض تعرض نفسها عليّ

تنهض في جسدي، تومىء وتنحني، ـ

طاقتي على التحوّل لا آخر لها. تعجز أن تنتهي ولا تعرف كيف

أترون هذا النسيج الأزرق

فوق

تحت القمر، وراء ظهره

تلتفّ به خاصرة البحر،

ويصير تاجَ الأفق وكرسيّ الموج

يسمحُ للسماء أن تنسله خيطاً خيطاً لتربط أصابعَ النّجوم كي تتذكّر النّجمةُ أختها دون أن تنسى الأرض ـ

هل يُعقَل أن يكونَ هذا النسيجُ شخصاً آخرَ غيري؟

لا أصدّق، ـ

اسألوا التقمّص إن كنتم في شكّ...

مرّةً، صرتُ لؤلؤة،
تحيا مع اسْمِها
وحيدةً ـ ضمن العالم خارج العالم.
حينذاك عرفتُ كيف تعطي مجّاناً كالشّمس،
وحين رأيتها عاريةً تبحث عن ثوبٍ ضائعٍ ترتديه
تعلّمتُ كيف تكسو عُرْيَ العالم.
وصحتُ أيّها الآخرون أيّها الأقنعة
إنني من طينةٍ ثانية، أعيش في وحدة اللؤلؤة،
لهذا تبدون لي، أنا الميّت بينكم جُثثاً،
وصحتُ قبيلَ ذلكَ ـ تقدّمْ، تقدّم يا عصراً يكون فيه الإنسانُ
طقسَ نفسه:
السّقوطَ والله، الأرض والجنّة، القائمَ والقيّوم...
ومرّةً صرتُ
عاصفةً ـ مزماراً بآلاف الثقوب يغنّي لنفسه بين نفسه والفضاء
وتنتحب في ثقوبه روحُ الدّنيا،
كنتُ وأنا أغنّي

أجعل الهواء آنيةً للبخور
والغيوم أهداباً للأرض
والمطَر أجراساً وخواتم.
أرضٌ تعرض نفسَها عليّ، تنهض في أحشائي؛ -
أعرف الآن أن أجمعَ أشياء الأرض
أجعلَها في وسادةٍ أمدّها تحت خدّي
أعرف الآن
أين يكون اللّيل إذا جاء النّهار،
والنّهار إذا جاء اللّيل،
أعرف أنّ جنس الرّبوبيّة يتأصّل في أحشاء الأرض ويتناسل،
أعرف الأرضَ بالأرض
والسّماءَ بنور الأرض.
هكذا أظهرُ في قميصيَ الجديد!
لكن،
ما هذا الخوف؟ ما جئت لألقي الخوفَ بل التغيّر.
حتى كورنيش البحر يختبىء
وبيروت كالخيط،
حتّى أصدقائي صاروا كالخيط!
شجرةٌ وحيدة تعانق الجمرَ وهي تفتح إنجيل الفضاء فتَحت
أغصانَها وفيّأتني

آه يا صديقتي،
وشكراً.

ـ ٥ ـ

١ ـ أصوات:
الحُلُمْ المكانُ ورقّاصُ الوقت
يَجيءُ
يبلغ العَتبة
يدخل ويقبّل الحضور
يجلس

في القلم والورق
في تفاعيل الحياة ونثرها
في الكلام والخبز.

٢ ـ قداس:
رجَع دفتر الشمس السَوداء وعادت أيّامه
رجع الحبر الأبيض كالدّمع
وانفتح البابُ الآخر
البريءُ جنازةُ كلّ يوم

والبَراءة الكفن.

٣ ـ جرس:

الضّوء الضّوء
والنَّفَسِ الأرضيّ اللاّجىء بين الأشجار
يتراجَعُ محمولاً على الهواء
يتَراجَعُ ساقِطاً في مداراتِهِ
يغسل أيّامه
ويعتزل مع شمسه بين الرّداء والجسد
تحت البشرةِ ما وراءها
والخَبرُ أنّ شمسه حُبْلى.

٤ ـ شجرة:

لماذا الإنسانُ حين لا يكون للإنسان اسمٌ ولا هويّة؟
لماذا المكانُ حينَ يكونُ مقفلاً، مليئاً كالطّبل؟

٥ ـ فراشة:

ستموتُ وتسكن مثليَ في الظلّ تحتَ الفُصولْ

حيثُ لا جارَ إلاّ صَدانا
في الغُبار وفي العشب حين عَبَرنْا
مَرّةً ورسمنا خُطانا
في كتاب السُهولْ
وسنبقى هنا أثراً لسوانا
أثراً لِلتّفيؤ في الظلِّ تحتَ الفُصولْ
حينما يسقطونَ ويُغويهمُ صدانا.

٦ - اصوات:
رأسُ مهيارَ سِحْرُ
كأنّ المكانْ
طَبَقٌ تحته يُدارُ
رأسُ مهيار بُرْجٌ وقارورةٌ لِلدّخانْ
رأسُ مهيارَ نجمٌ
كأنّ اللّيالي
طُرُقٌ حوله ونارُ
رأس مهيارَ يعلُو
يُضيء الأعالي.

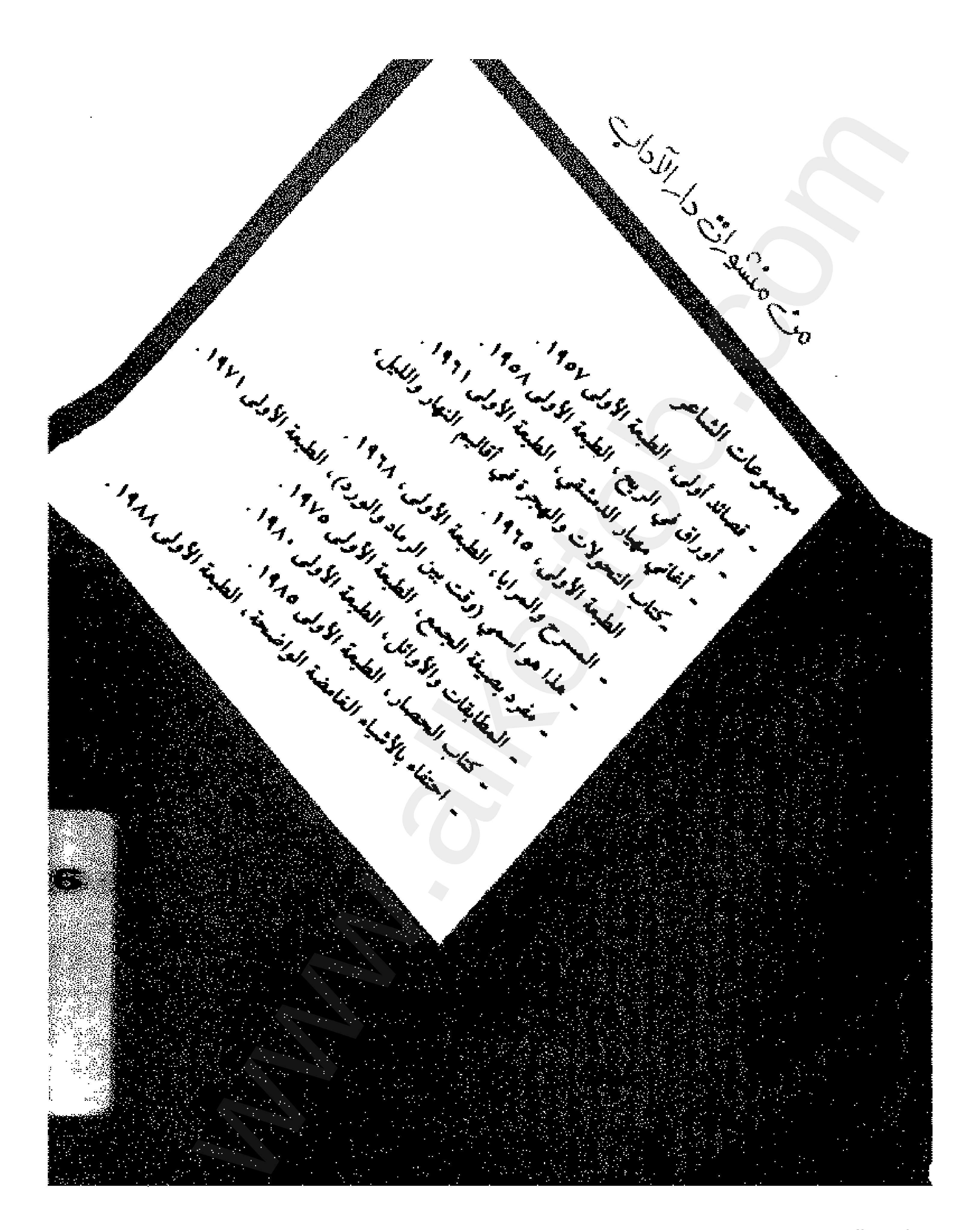
٧ ـ أغنية:

لو دَعوتُ الرِّياحَ وأوْهمتُها
لو حلمتُ
أنَّ لي عَالَماً لا يُحدَّدُ بالأرض، بل بالرِّياحْ
أنَّ لي رايةً في الضِّياءِ ومملكةً في الجناحْ
لوْ دَعوتُ الرِّياحْ
وأخذت مفاتيحها واختبأتُ،
غيرَ أنَّ الرِّياحْ
دخلت في الصَّباحْ
حينما لَفّني النُّعاس وعانَقْتُها وحلمتُ...

(بيروت، آذار ١٩٦٢)



# فهرس


من منشورات دار الآداب
مجموعات الشاعر
• قصائد أولى، الطبعة الأولى ١٩٥٧.
• أوراق في الريح، الطبعة الأولى ١٩٥٨.
• أغاني مهيار الدمشقي، الطبعة الأولى ١٩٦١.
• كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل،
الطبعة الأولى، ١٩٦٥.
• المسرح والمرايا، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.
• هذا هو اسمي (وقت بين الرماد والورد)، الطبعة الأولى ١٩٧١.
• مفرد بصيغة الجمع، الطبعة الأولى ١٩٧٥.
• المطابقات والأوائل، الطبعة الأولى ١٩٨٠.
• كتاب الحصار، الطبعة الأولى ١٩٨٥.
• احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

To: www.al-mostafa.com

